سيدة سوريا

شهرية مستقلة تعنى بالمرأة السورية

تصدر عن المركز السوري للصحافة والنشر

أيلول عدد خاص 2015

بوح نسائي

تقاطع وتوار	أمل الياس	7
التيه	بنان حاج بكري	8
صدى الانتظار	غادة باكير	12
أنثى مشاكسة	رقية شيخ حسن	14
فضائي للأبد	فلك الخالد	18
الطريق الصاعد الى سجن المزة	رماح كلول	20
حاجز الحب والموت	فاتن رحال	24
الحلم الضائع	لينا خياط	26
شهناز	بانة سعيد	30
هي لي	نور كيالي	34
تراب مخضب بالدم	راميا مستو	36
تجاعيد المخيم	تغريد محمد	40
نوار	فلك الخالد	44
كوليلك	شيرين بريك	48
رحيل	شهيناز عبد الغفور	52
كيف أصبحنا غرباء	جود الأصيل	56
أصفر	لبنى القنواتي	59

سيدة سوريا

رئيس التحرير
محمد ملاّك

مدير التحرير
ياسمين مرعي

مدير علاقات عامة وترجمة
د. إنعام شرف

سكرتير تحرير
مراد عيد

إخراج فني
الحكم النعيمي

saiedetsuria@gmail.com

WWW.facebook.com/saiedetsouria

المكتب الرئيسي
تركيا - غازي عينتاب

00905533679528
00905435322971
00905347362458

المركز السوري للصحافة و النشر
Syrian Center For Press & Publishing

السعر خارج سوريا: (5) يورو
توزع مجاناً داخل الأراضي السورية

حين ندرس واقعةً نناقشها ونحللها، فإننا نحللها كما تظهر في ذهننا وفي ذاكـرتنا، لا نعرف الواقعة إلّا في الزمن الماضي، لا نعرفها كمـا هي في اللحظـة الراهنـة في اللحظة التي تجري فيها، أما اللحظـة الراهنـة فلا تشبه ذكـراها، الذكرى ليست سلباً للنسيان، الذكرى هي شكلٌ للنسيان.

ميلان كونديرا

ليست الحياة ما يعيشه أحدنا، لكنها ما يتذكره، وكيف يتذكره ليرويه.

غابرييل غارسيا ماركيز

في الزمن الذي نعيش، في المكان الذي اعتدنا أن نسميه وطناً، المكانِ الذي يتداعى، ينهار، يتفكك، يتبدّد كذكرى عطرٍ نبحث عنه ولا نحصل عليه، كحلمٍ توقّف عند لحظة من السعادة، من اللذة، لن تنفع كل مهدئات العالم ولا منوّمات الأرض في العودة إليها، لامتلاكها، أو الوقوف على تخومها من جديد، لأهل سوريا هذياناتُهم الخاصة، خزاناتُ الذاكرة التي يحفظون فيها كلّ ما أضاعوه، مدناً، ساحاتٍ، أماكنَ جلوسٍ، أماكنَ سهرٍ، زوايا للقاءاتِ الحبّ، شرفاتٍ لتبادل النظرات، زجاجَ نوافذ لتلقّي حباتِ المطر، صوتها، صورتها ورائحتها أيضاً، فلا تأتي حبات مطر إلى نوافذنا دون رائحة خاصة للتراب تنغرس في ذاكرتنا، للغائبين العاديين مساميرُ للذاكرة، أعشاشٌ يحطون عليها بأجنحة الحنين تحملهم وتهبط بهم قربَ كلّ ما أرادوا، ما اشتاقوا، ما فارقوا، أجنحةٍ من أصوات الأحباب، حديثِ الذكريات، الضحكات ودعوات الأمهات، من نسي كيف يخزن الأهل حياة كاملة بكل زخمها وحضورها، حكايا وأخباراً، غيرةَ الجاراتِ، الآهَ، الشكوى، الأمنياتِ ووصايا بالحذر من كل ما لم يأتِ، ومعها أحلامٌ صغيرة يمكن تحقيقها ببعض مال، هكذا كثّف أهل سوريا حياةً كاملة، قطروها وأرسلوها في شريط كاسيت عابرةً البحر والبر، وبالصور حفظوا الحياة، خلدوا اللحظاتِ، صورٍ تقول ما لا يقوله كلام، تنتج المفارقات، تعمل مؤشراً لفعل الزمان فينا، في الأحياء من سكان قلوبنا وفي سكان ذاكرتنا، لأهل سوريا اليوم هذياناتُهم الخاصة، خزاناتُ ذاكرتهم، في زمن الصواريخ، البراميل، البنادق، حتى السكاكين، في الزمن الذي تخسر جارك كيف ما التفتَ كيفما التفتَ، أكان قاتلك أو كان قتيلك، عدوك أو صديقك، برميلٌ يمحو الصديق مع البيت، ويزرع بدل الحيّ، الشارعِ، الشرفةِ، النافذةِ، الباب، الياسمينةِ حجارةً وبقعَ دماء، جارٌ يغيرُ شكلَه بالسلاح، بالمتراس، باللهجة، باللحية، بالزيّ مموهٍ أسود زيتيّ أبيض، كل الألوان معاديةٌ، كل التغيير يربك الذاكرة، يضيع اليقين، مدن لم يبقَ منها حتى الصور، أصمتُ ورودٍ لم تبق وثائقُ تذكر من زرعها ومن سقى بذورها، أثاثُ بيوتٍ سافر في كل الأسواق، مرّ على كل الأيدي، ضيّع من يرعاه، من يمسحه، من يربت على خشبه، والأقمى أبناءٌ، أمهاتٌ، آباءٌ، أحبابٌ، إخوانٌ، أصدقاءٌ، رفاقُ لعبٍ، روضةٍ، مدرسةٍ، فقدوا ساقاً، ذراعاً، عيناً، نعومةَ الوجهِ، ألقَ الابتسامات، استبدلوا ليونةَ الشبعِ بشحوب الهزال، الجوعَ وقسوةَ الأيام التي لا يمكن تخبئتها وراء الظهر بل تُحمَل على الجباهِ، الوجوهِ، الخدودِ، الشفاهِ، العيون، أبناءٌ في عتمةِ الغيابِ نسيت أمهاتٌ، بناتٌ زوجاتٌ أشكالهم على اليقين، وفي زحمة الفقدان، رسموا لهم صوراً ربما تشبههم، ربما تشبه توقهن إليهم، وربما تشبه خوفهن عليهم، في عتمة القبور أحبابٌ ليسوا في المتناول، فلأهل سوريا قبورٌ لا يستطيعون الوصول إليها، قبورٌ تقتلها الصواريخُ والبراميلُ لمحوِ الذاكرة، في زمن الموت، القتل، الانقلابات، الضياعِ، التعبِ، الجوعِ، الخوفِ، الترقب والانتظار المميت، زمنِ الارتحالاتِ التي تتسرب فيها الروح مع خطوات الأقدام الحافية والأيدي التي تفشل في كل مرة بإنقاذ من نحب، أشلاءً دامية، جلداً على عظم من الهزال والجوع، أطفالاً يأخذهم الموج بعيداً عنوةً عن كلّ تشبُّثٍ.

في زمنٍ يضيق فيه الهواء عن نفسٍ، الفضاءُ إلا عن آلاتِ القتلِ، الإيمانُ إلا عن السكاكين المغلفة بالفتاوى، الحبُّ إلا عن الفقدان والخسارات، تهدم الذاكرة، تتصدع أبوابُ مخازنها، وتتسرب الأيامُ، الذكرياتُ، الأحداثُ، الأمكنةُ، الأشخاصُ، الأصواتُ، العطورُ، الكلماتُ، حتى يبقى الناس على بضع كلماتٍ يرددونها، كأنْ لم يتعلّموا غيرَها، لم يسمعوا غيرها، لم يقولوا غيرها يوماً، في زمنٍ تهدم فيه الروحُ، يأتي البوحُ ذاكرةً ضدَّ النسيان، حياةً ضد الموت، وجوداً ضد العدم، مانعاً للانحدار، للتدهور، إكسيراً يعيد المعنى، العمقَ، وسوماً تقينا الضياعَ والتحلل، واقعاً بديلاً عن الموت وعن التلاشي، ضوءاً ينعش الذاكرةَ التي فقدتْ أدواتِ صراعِها للبقاء، البوحُ يا أهل سوريا ضوءٌ يخلق طريقاً من أملٍ في عتمة اليأس، يكسر وحدةَ الذهولِ، يعيدنا إلى كينونتنا كاناتٍ نشبه آخرين، زهوراً في شجرة واحدة وإن ذبلت، فراشاتٍ قيدَ الحياة وإن كانت تسكن شرانقها اليوم، البوحُ يصنع وطناً للفاقدين، مدناً عامرةً بالاحتمالات لمن لا يملكون إلا مدناً مهدمةً، منهوبة، مزروعة بالأعداء وثمار الكراهية، البوح يخبرنا كلّ ما يقوله الآخرون، يُعلِمُنا أنهم أحياءٌ، أنهم قريبون، أنهم يستعدون للسير نحونا، للالتقاء بنا، يُعلِمُنا أننا لسنا وحدَنا، البوح ثقافةٌ للحياة.

رئيس التحرير

ABF

سيدة سوريا

بوح نسائي يجني ثماره

سبعة عشر نصاً في عدد خاص لألم وأمل سيدات من سوريا

بالتعاون مع منظمة ABF السويدية نظمت مجلة سيدة سوريا في مدينة غازي عنتاب التركية ورشة عمل، لإنتاج مجموعة من النصوص القصصية لسيدات سوريات، يحكين فيها تجارب عشنها أوعايشنها عن كثب. ورشة العمل المقامة ما بين ١٢-١٦ أيار/مايو الماضي، والتي تأتي جولة في سياق مشروع "بوح نسائي"، تطلقه مجلة سيدة سوريا خلال عامي ٢٠١٥-٢٠١٦، بالتعاون مع عدة منظمات محلية ودولية، في هذا السياق التقت إرادة المنظمتين "سيدة سوريا" و"ABF" لإنتاج مجموعة نصوص تكتبها سيدات سوريات عشن تجارب خاصة في ظل ما يحدث في سوريا من حرب وانتهاكات، وخصوصية تعتبر النساء أكبر الخاسرين في مناطق الصراع، خاصةً وأن ABF كانت قامت بتجربة سابقة في هذا السياق العام الماضي، حيث أنتجت بالتعاون مع ناشطات سوريات قدمن حكاياتهن أو حكايات عرفنها بشكل وثيق، وتم تحرير النصوص العربية وترجمتها إلى اللغتين السويدية والإنجليزية، وإصدارها في كتاب تم توزيعه بعنوان "الحافة".

وفي هذا يقول **السيد "رضا طالبي" مدير المشروع** "أسست منظمة الـ (ABF) في السويد عام ١٩١٢، وهي اختصار لـ "اتحاد العمال التعليمي"، وتعد الديمقراطية، التعددية، العدالة، والمساواة، المبادئ الأساسية للمنظمة، حيث تهدف المنظمة إلى جمع الأفراد للدراسة سوية، وتكوين رأي مشترك حول القضايا الاجتماعية الأساسية في المجتمع، حيث يحق لكل شخص أن يحظى بالفرصة لاكتساب المعرفة من أجل التأثير في ظروف حياته، ليصبح قادراً على التأثير في التنمية المحلية والعالمية". ويتابع "بما أن فكرة المساواة بين الجنسين إحدى أهم الأفكار المتواجدة في نشاطات الـ (ABF) على الدوام، ونحن نرى التمييز والعنف المنتشر ضد النساء في مناطق الصراع عموماً وفي سوريا خصوصا". ما يجعل النساء في الصراع من الأكثر تأثراً، لكن أصواتهن غير مسموعة، وكتابة تجاربهن هي طريقة لتسليط الضوء على حال النساء في تلك المناطق، ولإظهار نضال المرأة من أجل الحرية والعدالة للعالم بأسره". ويوضح "طالبي" أن إدارة المشروع في (ABF)، التقت أعضاءاً من مجلة سيدة سوريا، ووجدنا أن منظمة سيدة سوريا مثيرة للاهتمام، ثم سنحت لنا الفرصة لزيارة مكتب المجلة في غازي عنتاب، واطلعنا عن قرب على أنشطتها، ونعتبر أن هذه الأنشطة كانت وما تزال مهمة بالنسبة لتطور المجتمع المدني، ومنظمتنا تمتلك نفس الأنشطة، لذلك قررنا انطلاقاً من توافق الأهداف بين المنظمتين التعاون مع "سيدة سوريا".

وتخبرنا **ياسمين مرعي، مدير تحرير مجلة سيدة سوريا**، عن اختيار المشاركات، وكيف تم التركيز على مجموعة من السيدات والفتيات السوريات اللاتي عايشن تجارب خاصة، بحيث يمكنهن الكتابة عن تلك التجارب التي مررن بها بشكل شخصي" أو عايشنها ضمن محيطهن الاجتماعي، ما يشكل فسحة حقيقية لرواية المعاناة الشخصية، التي قد تحول كثير من الظروف دون كشفها. وتتابع "مرعي"، أن المشروع وفّر فرصة حقيقية لإعادة إنتاج تلك القصص والتجارب من خلال نصوص مكتوبة، قد ينسب بعضها لأسماء مستعارة نتيجة الظروف الأمنية الحرجة.

تدريب قدمته الورشة للمساهمة في بناء النصوص

ورشة "بوح نسائي" في غازي عنتاب، ارتكزت في التدريب الذي قدمته **المدربتان "ماجدلينا بيك" و"ليلان كاوبي"** على مجموعة من الأوراق قدمت خطة تفصيلية لكيفية كتابة النص القصصي، ابتداءً بالمقدمة التي من المفترض أن تدخل فيها الكاتبة لرواية التجربة التي اختارتها، مروراً بكيفية اختيار البطل أو مجموعة الأبطال، والتطور الدرامي في سياق السرد القصصي، وصولاً إلى النتائج أو الخاتمة.

وفي هذا تقول السيدة "مجدلينا بك" من فريق التدريب: "تعتبر الدورة المقدمة في ورشة العمل من الدورات ذات النمط السريع،

بسبب المدة الزمنية المحدودة لإنتاج القصة، وعليه كان علينا أن تكيف مع الظروف الموجودة. وتضيف، أن كل إنسان يستطيع الكتابة بالضرورة، لكن الفكرة الأساسية تكمن في إطلاق الطاقة الكامنة للمشاركات، ومع استخدام توجيهات مناسبة، واعتبار المدربات جهة يتم البوح والتخاطب معها، تتابع، أعتقد أننا حصلنا على نتائج فاقت توقعاتنا، فقد كانت المشاركات على دراية بالورشة واستعداد لها قبل بدئها، بمعنى أنهن كنّ على علم لماذا هن موجودات، وأنهن سيشاركن بإرادتهن، قصصهن ومعاناتهن مع الآخرين.

وتؤكد"بيك" أن هذا الأمر مهم جداً بالنسبة لفريق التدريب، قائلة: "لا نريد، وعلى افتراض امتلاكنا السلطة لذلك، أن نفرض على أي أحد الكشف عن تجاربه دون استعداد". وتختم إن المشاركات كنّ في غاية الروعة، ومستعدات، وأعطين معلومات عن مواقف صعبة وقاسية بكثير من التفاني، وأبدين استعدادهن لمشاركتها.

هذا وقدمت المجلة جزءاً مكملاً وداعماً للتدريب الذي تلقته المشاركات، من خلال برنامج تدريبي قدمه "محمد ملاك" رئيس تحرير سيدة سوريا، شمل "معايير الجودة الصحفية، كتابة العنوان، كيف تنتج حكاية من وقائع تمر بها، إضافة إلى نبذة عن تجارب كتابية".

الثقة بالفريق كانت اساساً للبوح والتواصل

تقول **السيدة "أمل الياس"** وهي إحدى المشاركات وكاتبة أحد النصوص: "لا يبوح الفرد، خاصة المرأة، بما في داخله من مشكلات حادة، وانفعالات ومشاعر مضطربة، إلا إذا تمت عمليات الثقة، والتدعيم والتشجيع من قبل الجماعة، وتجربة البوح الذاتي ضمن مجموعة و بإشراف كادر تدريبي ك فريق سيدة سوريا وفريق التدريب، منح السيدات الثقة والقدرة على التعبير ووصف الحياة في أكثر لحظاتها كثافة . "وتؤكد "ما كتبته السيدات ليس مجرد قصص قصيرة، إنها وثائق حرب، وهي جزء من ذاكرة السوريين زمن الثورة".

وتتابع "تعلمت في ورشة البوح النسائي مع سيدة سوريا، بأنني أملك كل الحرية في أن أروي.. أن أتحدث عن الجمال والبشاعة في آن. قدم فريق العمل للسيدات الدعم النفسي اللازم ليقمن بالبوح من جهة، والأدوات اللازمة لذلك في شرح عن عناصر القصة وكيفية بنائها، وتم ذلك ضمن جو من الراحة وفرته سيدة سوريا وفريق التدريب".

أما **"راميا مستو" وهي طبيبة**، إحدى المشاركات وكاتبة أحد النصوص" كانت المشاركة في ورشة بوح تجربة مميزة بالنسبة لي، وجدت نفسي بعد سنوات من الانقطاع عن ذاتي أعود مجدداً لأمسك القلم، واكتشف أنه ثمة إنسان هناك، تعيش داخله الاف الحكايا اسمه ذاتي، إنسان من قلب وروح كنت قد نسيت وجوده، أجمل ما كان في الفريق هي المحبة الروح الجميلة التي جمعتنا ، ولربما الالم المشترك فكرة المشروع كانت رائعة .بوح نسائي في زمن نسينا فيه انفسنا ونسينا العالم وسط الدمار.

وتقول "مرعي": " لم تكن ورشة "بوح" كغيرها من الورشات من حيث التفاعل بين الفريق المنظم، المتدربات والمدربات، وهو ما يمكن رده إلى خصوصية محتواها، من حيث العمل على توثيق التجارب الشخصية أو المشاهَدة عياناً من قبل المتدربات، ما أتاح اقتسام المشاعر المستعادة بحلوها ومرها بين المتدربات، وكسر رهبة التواصل بينهن وبين فريق المجلة والمدربات.

وبهذا الصدد تخبرنا السيدة "بيك": قبل حوالي السنة من الآن، قمنا بعمل مماثل خاطبنا فيه النساء فقط، ونعتقد أنه من المهم أن نروي القصص المتعلقة بالحياة اليومية للنساء، لأنه ببساطة مثل هذا النوع من القصص يبقى مفقوداً في التقارير الإخبارية والإعلام، ومن الصعوبة بمكان على العقل البشري أن يستوعب الأرقام والإحصائيات، لذلك عندما نركز على قصة شخصية، (وفي حالتنا العديد من القصص)، وأن نعيش تجربتهن، وظروفهن وخاصة أن الحرب دائرة في مدنهن، نكون قد نقلنا صورة الوضع في سوريا إلى مستوى القارئ، نحن نظهر في هذه الحالة أن الأفراد هم الناس في كل مكان، يقلقون على أطفالهم، على طعامهم، ذهابهم إلى عملهم، لكن مع فارق جوهري هو العيش في ظروف استثنائية.

ويقول **"محمد ملاك" رئيس تحرير مجلة سيدة سوريا**، أن "بوح نسائي" مشروع لم يبدأ بورشة العمل هذه فقط، بل سبقها إفراد صفحات من مجلة سيدة سوريا، منذ تأسيسها، لحكايات نساءٍ عشن معاناةٍ وانتهاكات، أو شهاداتٍ لمعتقلاتٍ لدى نظام الأسد أو جماعات متشددة أو ميليشيات طائفية، كما عمل فريق سيدة

سوريا على مشروع "بوح نسائي" بالتعاون مع عديد المنظمات والجهات الأخرى، ومنها مشروع في ٢٠١٥ تتعاون فيه مجلة سيدة سوريا مع شبكة "المرأة السورية"، مدعوماً من منظمة "أولف بالمه" السويدية، حول تغيير الصورة النمطية للمرأة والحد من العنف.

ويؤكد أن مشروع "بوح نسائي"، والذي يهدف في إحدى نشاطاته، إلى تدريب ٧٥ امرأة سورية، ٦٠ منهن في الداخل السوري، و١٥ في دول الجوار بمخيمات اللجوء وغيرها، لا زال مستمراً، موضحاً أن المراحل السابقة ركزت بشكل أساسي، على كيفية تحرير الخبر وبناء المادة المكتوبة أو الإذاعية، منوهاً أن تدريب ناشطات الداخل يتم عبر "سكايب".

ويضيف "ملّاك" أن إحدى فعاليات مشروع التعاون يتضمن إطلاق مسابقة في الكتابة القصصية غير الاحترافية، واختيار نصوص فائزة مع جوائز تصل إلى خمسة آلاف دولار، حيث تستهدف المسابقة شريحة واسعة من نساء سوريا "من مختلف المشارب والخلفيات السياسية والعرقية والطائفية"، مؤكداً أن هذه التجربة سترتكز على أسلوب البوح في الكتابة، لإضفاء اللمسة الإنسانية التي غابت بسبب العنف و"ازدحام" الأحداث في سوريا، من خلال التجارب الحية التي عايشتها النساء في الداخل.

وأشار "ملاك" أن ورشة العمل التي أقيمت بالتعاون مع منظمة ABF السويدية، أنتجت ١٧ نصاً قصصياً، قام فريق سيدة سوريا بالعمل على تحرير النصوص التي تم اعتمادها استناداً إلى معايير محددة، وإخراجها فنياً، وتهيئتها للنشر، لتكون مادة العدد الخاص الذي تصدره المجلة، ويقدم له هذا التقرير، كما أضاف الفريق مجموعة من الأعمال لتشكيليات سوريات لترافق النصوص على صفحات العدد.

تقاطع وتواز .. سيف

أمل الياس

عمل للتشكيلية ميس بنكسلي

ليس بين الرصاص مسافة، كما ليس بيني وبين من يحاول قنصي مسافة.

الفرق بيننا أنه يملك تلك الرصاصة.

واقف يترصد كل ما حوله، واثق أنه لن يخطئ هدفه، مطمئنٌ إلى علو موقعه.

أترجل من السيارة التي تقلني إلى عملي كل يوم أمام الحاجز.

أراقبه كما يراقبني، أحاول أن أتبين ملامحه.

أتخيله وقد يبست رجلاه من الوقوف طويلا، والعرق على جبينه يمنعه من التركيز، أرثي له، أرثي لعائلته، أرثي لحالي، لم نكن اقتربنا من الحاجز عندما دوّى طلق ناري أخرجني من شرودي.

"الرصاصة التي تسمعها لا تقتلك"، لكنها قد تقتل أحداً آخر.

توقف قلبي، الأحمر يغطي المشهد برمته.

فتحت النافذة فأطل منها الموت ماسحاً تفاصيل وجهي، ووجهه، شابٌ في العشرينات من عمره الذي ثقبته رصاصة.

الوقت يمر ثقيلا:

رنين هاتفي يقطع لحظة الصمت، أردّ، أنه صديقي الذي يعمل معي في المشفى الميداني يحثني على العجله.

أترجل من السيارة، أركض، أركض كالمجنونة تاركة مشهد الموت خلفي،

أصل إلى المشفى، وأدخل بسرعة.

الدم يغطي كل شيء، الشراشف، الأسرة.

أنين مكتوم لشابين مصابين، وصوت الطبيب يعطي تعليماته لمساعديه، أدخل في الدوامة اليومية.

جراحة، مفجرات الصدر، تعقيم الأدوات الطبية، السيرومات، وصرخات الألم.

رائحة المخدر تثقل رأسي، صورة الشاب العشريني لا تفارق مخيلتي، ينصرف الكادر الطبي.

أركع على ركبتي، أبكي وأصلي لله كي ينجوا.

يمرّ يومان، يأتي الطبيب ليتحدث أليهما، أسمع كلاً منهما يعرف عن نفسه،

يقشعرّ بدني، يضيق نفسي وأنا أستمعُ.

الأصغر شاب من ريف دمشق أنضم منذ شهور إلى صفوف الجيش الحر، والثاني يافعٌ يعمل مع قوى الأمن لدى جيش ظالم يقتل الأبرياء.

أشفقت على الشاب الصغير وللحظة تمنيت الموت للآخر،

كرهته وكرهت ما يقوم به، ثم كرهت نفسي، دمي يغلي،

كل منهما في المكان الذي اختار، وأنا هنا بينهما أقف،

يُفتح الباب فجأة، مصاب جديد بحاجة للجراحة، نهرع إليه لا وقت للتفكير الآن،

الأحمر يغطي المشهد من جديد

التّيه

قصة بنان حاج بكري

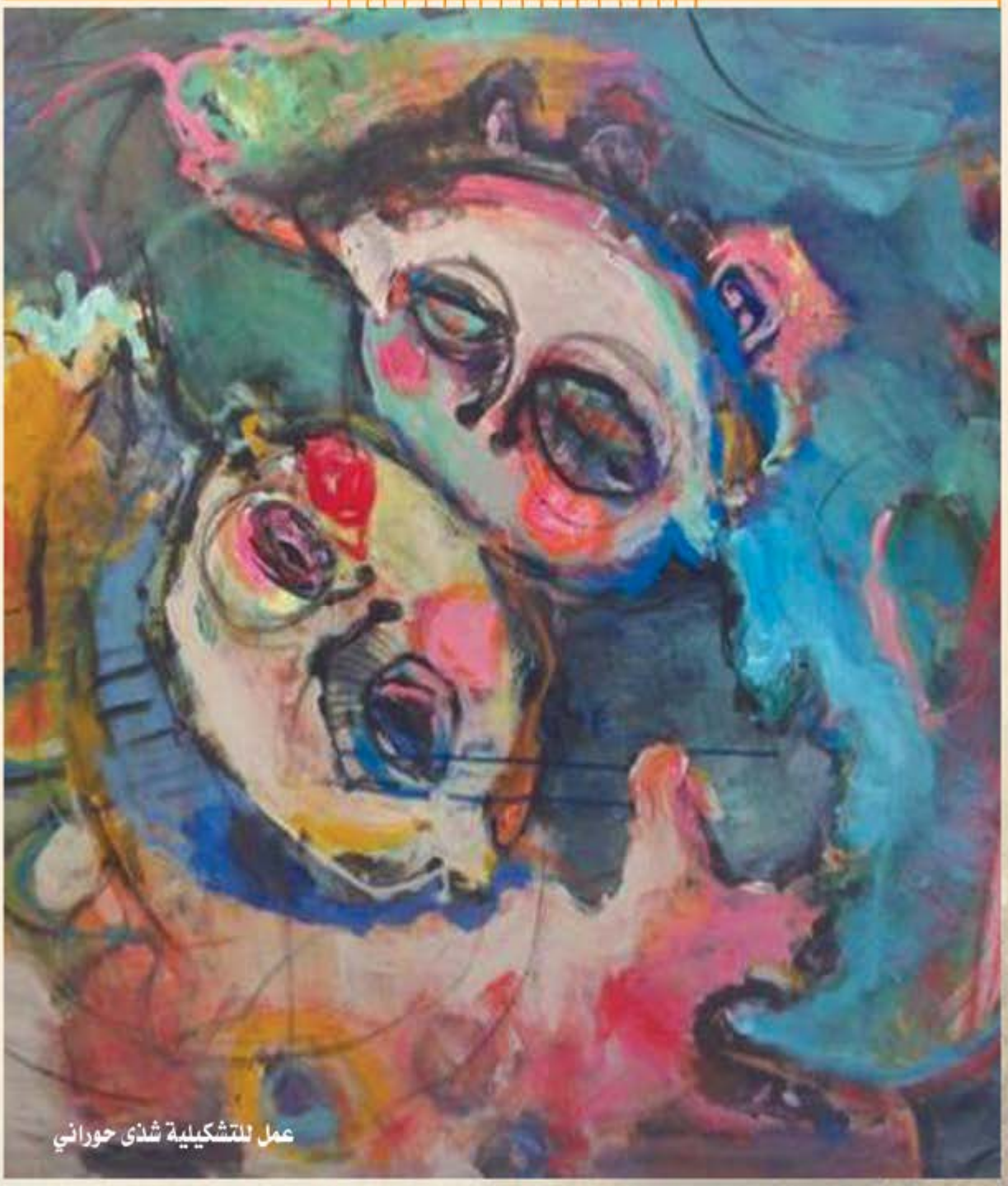

عمل للتشكيلية شذى حوراني

إنها النهاية إذاً. لم يبقَ إلا أن أفرغ جعبتي وأخلد للنوم متفوقةً بذلك على كثرٍ ممن باغتهم الغياب، فلم تتح لهم فرصة البوح. أفكر بملايين القصص التي غابت معهم. كل ما كانوا يعرفون أو ما يريدون قوله. إنها لنعمة كبيرة أنني مازلت أملك الوقت. شكراً للضابط الذي كان نائماً يوم اجتزت آخر حاجز يفصلني عن قريتي. شكراً لكل البراميل التي أخطأتني. شكراً لرجال الدين الغيورين على أعراضهم. يوم لم يشكك أحد منهم بأي مما لفقته من أكاذيب. أتّقي بها شرهم وأضمن بقائي في وطني.

كل شيء محض افتراء. والولادة ليست بداية الحياة. فما أكثر أولئك الذين يولدون أمواتاً! ما أكثر أولئك الذين يتنفسون لعقود. ويظنون أنهم أحياء وهم لم يعرفوا للحياة معنى! ما أكثر من تلاحقهم لعنة الموت أثناء بحثهم عن الحياة. حتى يصير الموت رفيقاً قريباً يرفض أن يغيب مهما تجاهلناه!

لا أدري إن كنت تمردت على العادات في بلدي. أم أني كغيري ولدت ميتة. أعرف فقط أني لم أعترف بحدودٍ لأحلامي. لكني دوماً التزمت حدود الواقع أمام المجتمع. سوى ذلك لم أعد أذكر الكثير عن تلك التي كنتها يوماً. ولا أدري إن كان من حقي أن أتحدث عنها. لكنني سأعترف أني لم أحقق لها أياً مما كانت تحلم به. حتى أصابها اليأس فكفت عن مطالبتي بشيء. منذ ذلك الحين لم يعد يعنيني الوقت.

مما لم أعد أذكره على وجه اليقين أيضاً. أي خريف بالضبط بدأنا ننتظر الربيع؟ في ذلك العهد كنت أنتظره بشغفٍ لا حدود له. ترتفع الأصوات. يندفع البعض. يجرب آخرون بحذر. يستسيغون طعم الحياة. يدمنها كل من يتذوقها. ينتشر الشغف. ترتفع الأصوات مجدداً. نستبدل الأكسجين بحلم وولد معاً. ثم نبدأ الغناء والرقص احتفالاً بالربيع المنتظر.

على قيد الحلم أبقى بهدف الحفاظ على الحياة. يذكرني الله على المقعد في كليتي. تتداخل في أذني تعليمات المراقب قبل توزيع أوراق الامتحان. بأصوات البوارج وهي تقصف من البحر. أحد الأحياء القريبة.

في حيٍ يخافون فيه الربيع. الوجوهُ محتقنة. الجميعُ يتابع ما يجري بحذر. الجميع مترقب. أحدهم يهمس لرفيقه: "أتراهم دخلوا حرباً مع دولةٍ عظمى فلم ينتهوا حتى الآن"؟

أقول لسائق إحدى سيارات الأجرة: "ساحة اليمن لو سمحت". فيعتذر عن الذهاب. اثنان آخران أيضاً. أحدهم يقود سيارته دون أي تعليق. فأفهم أنه لن يذهب. رجل كبير في السن يقلّني. يحاول بدء نقاش عن الأوضاع في المدينة مؤخراً. فلا يسمع مني أي تعليق.

يطمئنني الشهيد الذي لم يكن قد استشهد بعد:

- سنعيش.. سننتصر.. مسألة وقت. علي أن أهتم بكليّتي فقط. ثم يتحدث مطولاً عن بوادر تحرّكٍ في إحدى المحافظات الكبيرة. والتي كانت ماتزال هادئة حتى ذلك الحين. وكيف ستنقلب الأمور على رأس أعداء الربيع.

كم كنت أحب ذلك الشهيد الذي لم يكن قد استشهد بعد!

كم كان وجوده يليق بالحياة والربيع!

أنهيت دراستي. في تلك الأثناء كنت أتابع عن بعد أخبار المناطق التي وصلها الربيع. وبعد ساعاتٍ من استلامي وثيقة تخرجي. كنت أقبل تلك البقاع الحرة. في لحظةٍ خجلت أن أطأ التراب بقدمي. أغمضت عيني أردت احتضان الأرض بأهدابي. كم كانت توقعاتي كبيرة!

مجدداً. لكن من أرض الربيع هذه المرة. تحدثت الى الشهيد الذي لم يكن قد استشهد بعد. رحت أخبره عن الوضع. أحثه على الخروج. ربما تأخر قدوم الربيع إليكم تعال وألحق به هنا.

بعد ساعاتٍ من ذلك. وقبل أن أبدل ملابسي. كنت أجلس مع مجموعةٍ من الشبان في المنطقة. نكمل عملاً وضعنا خطته منذ مدة. العمل في أرض الربيع كان أجمل من أن يوصف. لم أكن أستطيع إخفاء ضحكةٍ تباغتني كلما سمعت أحدهم يتحدث عن أعداء الربيع بكل بساطة. دون أن يخفض صوته. أو يتلفت يمنة ويسرى قبل أن ينطق.

انتهى اللقاء. خرجت. الهواء المنعش. رائحة الأرض. لوحات الإله على دفاترَ من جبال أرض الربيع. تفيضُ روحي بما لا يمكن للغةِ اختصاره.

أيها الربيع المقدس. روحي تدركك. وإنسانيتي تستمد قيمتها من وجودك. وكلي يفرح بك. بل لا يفرح إلا بك. لكن لغتي حائرة تعجز عن تجسيدك بكلمات. فأنت القيمة والمعنى.

- ٢ -

{يومَ ترونها تذهلُ كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت، وتضعُ كلُّ ذات حملٍ حملها، وترى الناسَ سكارى وما هم بسكارى} الحج/٢

إنه يومٌ تسقطُ فيه البراميل المتفجرة.

أسابيع مضت على وجودي في أرض الربيع، كنت أكتشف خلالها تدريجياً أن المكان ليس الجنة التي حلمت بها، الواقع يفرض نفسه، وجميعنا حديثو الولادة، لا يمكن أن نطلب من أطفالٍ أكثر من ذلك. لا أملُّ النقاشات المطولة، جميعنا طالبنا بالربيع، لكن يبدو أن لكلٍ منا تصوُّره الخاص لشكل الربيع المنتظر، تعالوا نتفق. تفاجئني بعض الآراء، وتسعفني الحجة غالباً لأدافع عن ربيعٍ ملون، تتسارع الأحداث على الأرض، تغيرات جذرية في خطاب سكان أرض الربيع، من أين يأتون بهذه المصطلحات!

توجّهٌ جديد يطغى على الناس، ولي حلمي، التصعيد العسكري يفرض نفسه، تتغير أولويات السكان في ذلك الوقت، كنت أدعي معرفة الخوف والقدرة على ضبطه، سمعت قصصاً عما يتعرض له الأهالي، سمعت أصوات الانفجارات، وهدير الطائرات خلال النهار وهي تفتح رشاشاتها، تفاصيل كثيرة تعزّز ادعاءاتي، أعود إلى تلك الفترة في كل مرةٍ يخيفني صوت بابٍ يغلق بقوة، أو صراخ أحدهم في شوارع اللجوء، مع الحرب لا مكان لأنصاف الحلول، فهي إما أن تبتلع ضحاياها أو أن تَسكنَهم.

تتدهور الأوضاع الأمنية أكثر فأكثر، لا حياة حيث أنا، أن تعيش هنا يعني أنك ستبقى في كهف ما طوال النهار، وإلا فأنت تنتحر. يترك معظم الناس بيوتهم، وكأي منهم أنتقل ضمن أراضي الربيع، لكن قريباً من جيرانٍ يحسب أعداء الربيع حسابهم، الأوضاع الأمنية أفضل، لا طيران خلال النهار ولا صواريخ ليلاً، لكن الأصوات تصلنا من حيث كنا، الأمور تسوء هناك، والواقع الجديد يفرض إعادة ترتيب الأولويات مجدداً، أتابع عملي هنا بعد أن توقفت لثلاثة أيام بينما أرتب أوضاعي الجديدة، يردني لصوص الربيع جزءاً من ربيعٍ لا يرتدي الجينز، وأصر أن الربيع لا تهمه الأزياء، في البداية كنت أرفض بقوة، وأعلن مواقف حاسمة واضحة، من عرفني في تلك الفترة لم تنطل عليه حيلي لاحقاً، يطيلون لحية الربيع المسروق، وأتعلم من رجاله، السياسات الشرعية، فلو كان بيني وبين رجال الربيع الملتحي شعرة لما انقطعت، يضحك الشهيد الذي لم يكن قد استشهد بعد، فيزهر الربيع الملون على أنغام حباله الصوتية، أتابع حديثي مقلدةً أصوات من أخبره عنهم.

-يا أختي والله ما في جعبتي إلّا: قال الله وقال رسول الله، فهل تجادليني في هذا.

-معاذ الله يا شيخ، لكن لو أنا اتفقت معك احتراماً أو خوفاً، من سيوقف التساؤلات في رأسي بعد نهاية حديثنا؟ عند أول عارض سأعود إلى التشكيك، إنما أطلب أن أفهم لأدافع عما تريدني أن أقتنع به كما تدافع أنت، ساعدني لأتبنّى الفكرة.

-بارك الله بك أختي، اسمعيني.. لنفرض أنك تمتلكين جوهرة ثمينة، فهل تعرضينها لكل غريب وقريب، أم تحاولين الحفاظ عليها وتغليفها جيداً بحيث لا يطالها غيرك؟

-أحاول الحفاظ عليها.

-هاها أُخية.. متفقان إذاً. وهذا ما يحاول منهجنا فعله، أنتن أخواتنا جوهرات ثمينات في نظرنا، فهل نترككن كمن حدثنا عنهن سيد الخلق "كاسياتٍ عاريات"، أم نحفظكن ونحافظ عليكن؟

أتوقف، يسأل الشهيد الذي لم يكن قد استشهد بعد: "ماذا قلتِ له"؟

-لم أجبه، قلت لنفسي فقط أيها الأحمق أنا لست ملك أحد، ولا أحتاج أحداً ليحافظ علي، قيمتي في كوني إنسانة، وليس جوهرة أو أي شيء آخر. في ذات الوقت كنت أرسم على وجهي الكثير من التأثر، بطريقة أيقن معها أنني أوشك على البكاء من شدة غبطتي بعظيم ما شبهني به، فأنهي حديثي.

يزهر الربيع الملون مرةً أخرى، يقطع ضحكته، يهمس: "يا مجنونة!".. ثم يعود للضحك.

لاحقاً في أراضي اللجوء التي أزورها من حينٍ لآخر، يعتبر منظّرو الربيع غطاء رأسي اللعنة التي أخرت قدوم الربيع، أحاول تجنب الحديث فلا أفلح، يطلب مني أحدهم أن أذهب بخصلةٍ من شعري وأخرى من شعره إلى أي مختبرٍ على سطح المعمورة، لنرى ما هو الفرق الذي يفرض علي أن أغطي رأسي، في حين أنه ليس مضطراً لذلك.

منظرٌ آخر يستفزني بقوله: " لدي أم وأخوات وزوجة، وفي الشارع أرى يومياً عشرات ممن يقدسن حريتهن، ولا أعبأ بشعرك أو شعر غيرك، أتحدث فقط حرصاً على أن تكوني حرة، ستعيشين مرة واحدة فقط، لا تفوتي الفرصة، علي أن أبلغك الرسالة كي لا تقولي يوماً: أضعت كل هذا لأنني لم أجد من يحرص علي فينصحني".

أكره من يعتقد أنه يحرص علي، تماماً كمن يعتقد أنه يحافظ علي، وأبتسم لكليهما.

- ٣ -

في وطنٍ تخونه لو بحثت عن سماءٍ تظلك بعيداً عن سمائه التي تمطر دماً،

في وطنٍ يفاخر رجاله بمعانقة البنادق حتى الصباح،

في وطنٍ يحتاجُ مخلصاً يصرخ في وجوههم،

أليس في وطنكم نساء؟ ففيهن جاهدوا

في وطنٍ يحلمُ صغارُهُ أن يكبروا ليستشهدوا

وأفضلهم – إن كان لا بد من الشهادةِ – شهداء صغار

في وطنٍ القابضُ فيهِ على حلمهِ كالقابضِ على جمرةٍ من نارْ

لي حلمٌ.. ووصيةُ شهيدْ

كثرٌ هم المعذبون في هذه الأرض، لكن لا يوجد بينهم من يستحق الشفقة، كما ذلك الذي يفهم الناس من حوله، فتنقبض روحه وهم يبتسمون له أو يهمسون له بكلمات طيبة، فإن واجههم بالحقيقة نُعت بالجنون، وإن بادلهم النفاق بنفاق تمقته نفسه، تخنقني صرخة ما تظنونه صراعاً معي، هو صراعكم مع أوهامكم، لا أنازع أحداً على شيء، ولا أريد من أشيائي ما أحتاج صراعاً لأحافظ عليه.

في المنتصف تماماً، وعلى مسافة واحدة من كل شيء أقف، الأمل، الخيبة، الحب، الكره، الثقة، الندم، الشوق، الغفران، والرغبة في الانتقام.

أين أنا؟

يراودني عن حلمي جواز سفر، وربيعٌ يتحدث لغةً أجنبية، فتعاتبني عشر أصابع أنتبه أنها مازالت معي، أرفعها، أستل حلمي، أكوره نقطة في بدايةٍ جديدة لطريق تعزبه خطواتي.

صدى الانتظار

قصة غادة باكير

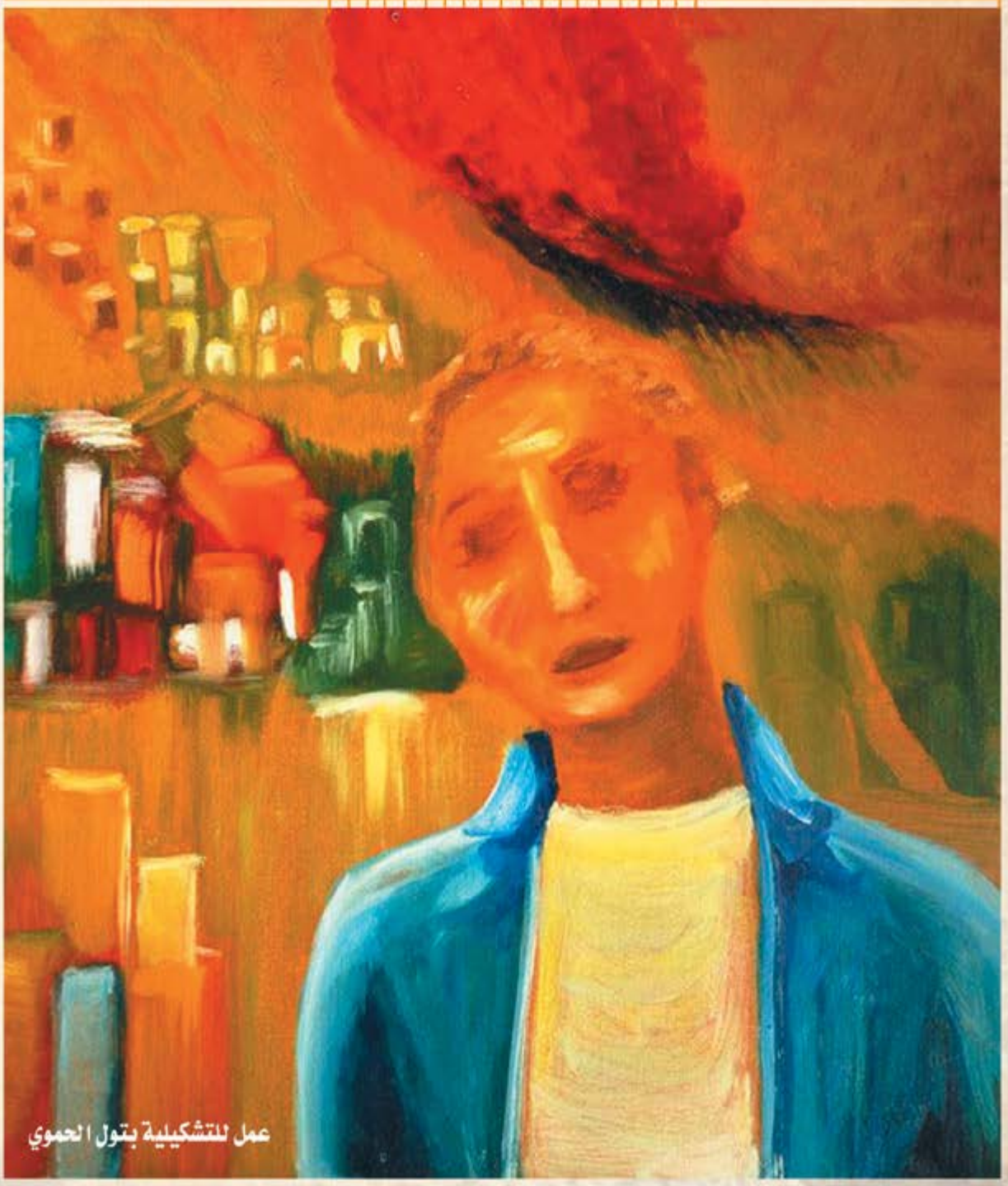

عمل للتشكيلية بتول الحموي

روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني

على شرفة ليلها تطيل الحلم والانتظار. لم تمل الأمل رغم مرور الدقائق وكأنها عقود من الوجع والغياب. تشعر بأنفاسه تسري في شرايين هذا الليل فتمنحها الدفء والراحة.

تمد يداً مرتعشة لتتلمس بطنها حيث يغفو جنينها. تحاول أن تستمد من دقات قلبه الصغير شحنة إضافية من القوة وتخبره بأن لا يقلق. سيعود والده قريباً. فهو لم يخذلها مرة لقد وفى دائماً بوعوده لها. وقد أخبرها بأنه لن يتخلى عنها مهما حدث وكان دائماً قريباً من روحها. يساندها ويمسح دمعتها. ويشاركها بسمتها. وهي لذلك واثقة من عودته.

تستعيد تفاصيل حبهما منذ تفتح براعمه الأولى. وتتذكر حلاوة قبلاتهما المسروقة تحت شجرة الزيتون في منزلها بعيداً عن أعين أهلها. وتحن لتلك الطرقات التي مشت فيها معه وهو يرافقها لمدرستها في ذهابها وإيابها.

كلما كبرا يوماً. كبر حبهما دهراً. ونمت أحلامهما كعريشة ياسمين تنثر أريجها في فضاء قلبيهما. تنتفض مذعورة من إغفاءتها حين تتلون تلك الياسمينة بلون دمه ويرتجف قلبها كفراشة أثقل جناحيها برد الوحدة.

كم مرة بقيت مستيقظة طوال الليل تراقبه نائماً مطمئناً. وهي تعجز عن النوم خشية أن يدخل الأمن ويعتقله. ولا تتمكن من إيقاظه ومساعدته على الهروب من المنزل. وحين يستيقظ ويراها على هذه الحالة يضمها إلى صدره مبتسماً. ليهمس قلبه لها: لا تخافي.

حدث ما كانت تخشاه. واعتقله الأمن. لكن ليس أثناء نومه. بل عند تصديه لهم. فقد حاصروه بعد أن أطلقوا النار عليه واعتقلوه مع عدد من الشبان واقتادوه لجهة مجهولة. وبدأ سفرها في طرقات الانتظار والحلم بعودته.

توالت الأيام والشهور لتلتهم بقايا أملها في عودته. وقد أصبح جنينها الآن طفلاً في عامه الثالث. تطاردها نظراته التي تطالبها بالوفاء بوعدها له حين كان جنيناً. وتحولت حروفه الصغيرة حين يبكي وينادي "بابا" إلى سياط تجلد صبرها الذي نفذ.

كم مرة سألت نفسها: ترى ماذا فعلوا به؟ كم عذبوه؟ أما زال على قيد الحياة. أم أنه استشهد كغيره تحت التعذيب؟ تضم طفلها لصدرها ودموعها تنهمر فوق ليل شعره الناعم. وتشعر بقلبها يخبو كضوء شمعة تترنح جراء تلقيها صفعات قاسية من يد الشوق والمرض.

إن كان هو عاجزاً عن الوفاء بعهده والعودة إليها. فلماذا لا ترحل هي إليه وتلتقيه بعيداً عن صخب الموت اليومي الذي تحياه؟

أغمضت عينيها بهدوء حاملة معها آخر ابتسامة. ورحلت تاركة خلفها ذاك العصفور على شرفة الصبح. يرقب أحلامها ويغفر لها خطيئتها. ضفرت شعرها الطويل وارتدت فرحة اللقاء وشاحاً قرمزياً من الحنين والشوق. وحثت خطاها صوب نجمة الصبح. حيث كان ينتظرها بلهفة.

عمل للتشكيلية أمينة هورو

أنثى مشاكسة

قصة رقية شيخ حسن

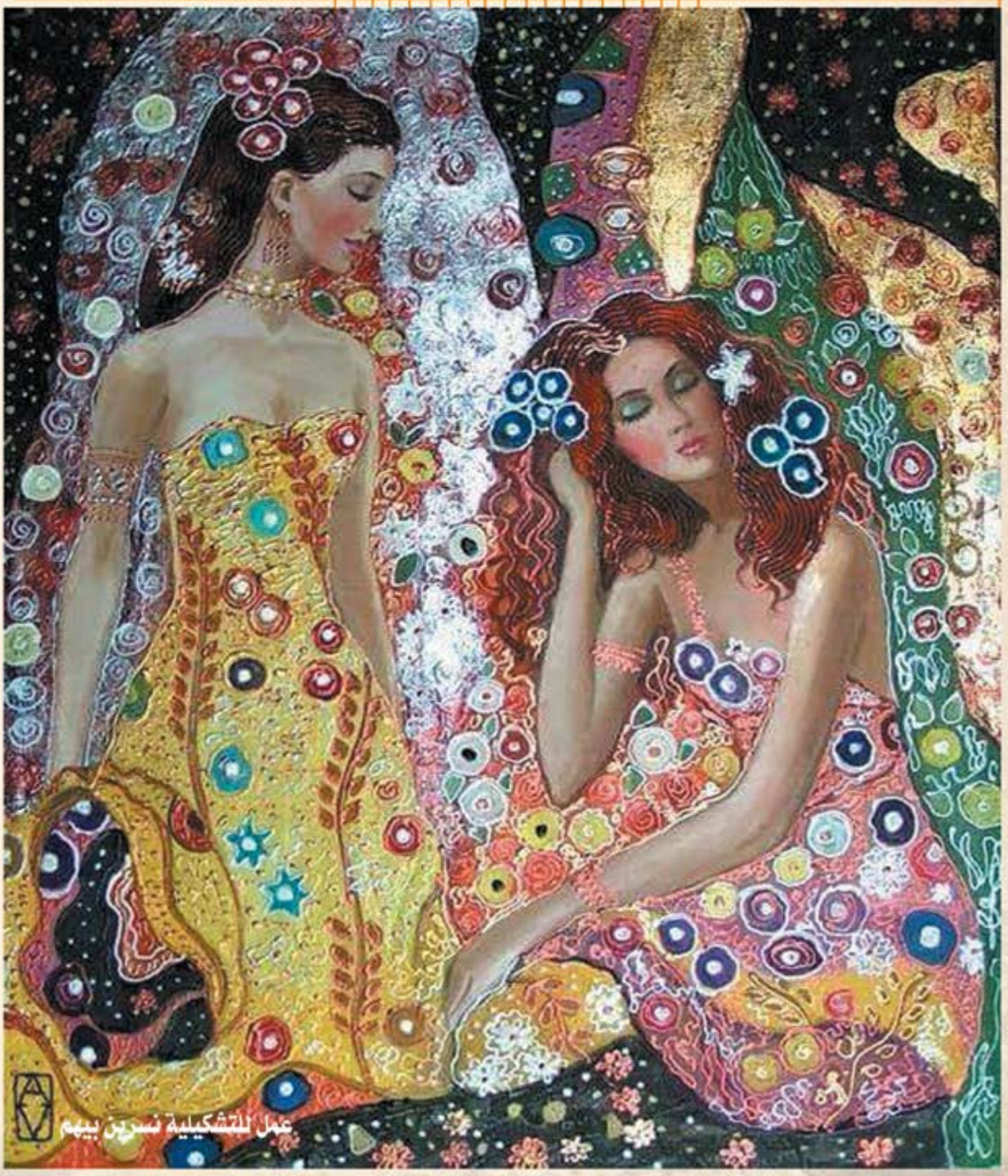

عمل للتشكيلية نسرين بيهم

روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي

هناك كلمات، قصص، جمل، ونساء لا يحتجن ترتيباً أو نطاقاً معيناً، جمالهن في كونهن مبعثرات متداخلات، مشاكساتٍ يقبّلنك أحياناً، ويضممنك بهمجية أو ربما يصفعنك أحياناً أخرى.

هكذا كانت ربتا الرشيقة، الجميلة، بشعر طويل، وعينين تشعان عناداً وحياة كحياة زهرة في تربة بركانية بطعم الحموضة، محاطة بأشواك ذكورية، تخزها شوكة من هنا وأخرى من هناك.

أتذكر ربتا تلك الطفلة ابنة السبعة أعوام التي خطفت الأنظار في حيّها وعائلتها.

ما جعلها شهيّة حتى في صغرها، ما أغرب طبائع الرجال، لا يلتذون إلا بحاسة الذوق.

يوجد جمالٌ يكفي النظر إليه، وآخر سماعه أو شم عبقه لتشعر بلذته، لكن بعض البشر تعوّدوا وفضلوا النهش على كل ما عداه من شهوات.

تلك الطفلة التي اضطرت منذ صغرها للجري أمام دكان جارها، كي لا يراها ابنه صاحب العشرين عام ونيّف، ويبدأ بهشها على طريقته، واضطرت كلما فتحت الباب لابن خالتها ذي الثلاثين أن تركض بسرعة كي لا يستغل انفراده بها بأي حركة، لكنها الآن لذيذة، شهية، ناضجة وقوية.

تعلّمت واختصرت الرجال بوالدها؛ ومنْ غيره تثق بأحضانه وتداعب وجهه ولحيته.. تخطف قبلة منه دون أن تمسّ روحها بأي عَطَبٍ.

كانت تلهو بعينيه الزيتونيتين، معجبة بكرمه وأخلاقه، علّمها ألا تتنازل، لا شيء أغلى منها، وظلت تصعد وتصعد وهي معه، لا حدود للسماء، ترقى بخلقها وكبريائها وجمالها، إلى أن حدث ما كانت تخشاه، لحظة سقوطه عندما كان مستلقياً في حديقة بيتها الرائعة وعلى أرض معشبة، إلى جانبه شجرة تين شاهدة على رحيله، وأمامه الجامع، حيث المئذنة يذكر اسم الله فيها.

تبادلا الحديث معاً، لا شيء فوق العادة، لا ثالث لهما، وفجأة جاءهما زائر، تعرفَت عليه، هو نفسه الذي حدثها في حلمها، طالباً منها والدها.

مشكلة ربتا أنها مفرطة الحس، تشعر بالحدث حتى قبل وقوعه، أحياناً لا تدري إن كانت هي من يخلق هذه الأحداث باستشعارها القوي وتجذبها إليها، لم يعد مهماً.

أخذ ملك الموت جسد والدها وروحها، هذه المرة أحسنَ القبض، أكثر من عصفورة بقبضة واحدة، ليتها سمعت الكلمة التي ماتت بداخله ولم يسعفه الوقت ليتممها، بقيَتْ حائرة، ترى ما الذي كان سيقوله؟

ودّتْ لو أنه مهد لها، لكن لا، كان كبيراً حتى بموته لا يستأذن، هو السيّد، لكن مثل ربتا لا تستسلم بسهولة، أخرجت مسرعة علبة دوائه ووضعت حبة، اثنتين، ثلاثة في فمه، فات الأوان، لا لم يمت، أسعفته وهي على يقين أن لا مجال لإنقاذه.

في ذاك اليوم كانت قد جدلت ضفائرها، وانسَلّ بينهما الألم على ظهرها، على كتفيها، يديها وصدرها، سحق كل ما بها، لم تعد تحب الجدائل.

صرخت، تراها سمعت السماء؟

توقف نبضها، قررت تغيير مكانها، لم يعد لأي شيء نكهة، حتى إنها شكت بشجرة التين تلك إن كانت ستثمر تيناً أو لوزاً، تفاحاً أو ربما توقفت عن حمل الثمر.

كانت وجهتها تركيا، تلك البلاد التي حيرتنا فلم نعد نعلم أهي صديقة أو عدوة أو لا يهم.

مَنْ غيرها تحضن السوريين هذه الأيام؟

وكأنها تعبر شوارع حلب فيها، محلاتها، أهلها بوجوههم المألوفة جداً، لوهلة أحسّت أنها التقت جارتها، لا هذه تتكلم لغة أخرى.

كل شيء جميل ونظيف، أمضت الطريق وهي تقرأ اللافتات الغريبة عن لغتها، تحاول التقاط كلمة من هنا وأخرى من هناك، ونزعَ الحجاب عن هذه اللغة، ومداعَبَةَ كلماتها وعباراتها.

هذه المرة ستنقض هي على الأشياء، لن تسمح لشيء بمباغتتها مجدداً.

أودت بها الشوارع إلى حي سكني شعبي، حيث البسطاء، كأولئك الذين تركتهم خلفها في بلدها، أسرعت إحدى الجارات لاستقبالهم مع بناتها الأربع اللواتي شكلن رفقة طيبة لها فيما بعد، واستأنست بهن وبتن مقربات منها، رغم اختلاف اللغة والطباع.

عدة أشهر مضتْ، لا جديد سوى أنها تعرفت على أصدقاء سوريين، همّهم الداخل وما يحدث في كل منطقة منه.

كانت، كل مرة تزورهم تشعر بعبق القضية، وكأنها لم تغادرها سوريا قط، أحبتهم وألفت الشبه المتبادل بينها وبينهم.

لطالما أحبت الذين يفكرون بما هو أبعد من نسائهم، منازلهم وحساباتهم المصرفية، أو حتى حصد الشهادات والألقاب، كانت تعشق أصحاب القضية، ووجدتهم هناك.

بدا لطيفاً بسؤاله عن مدينتها، عَلِم ما هو أبعد من منطقتها، كان أسمر اللون طويلاً وعنيداً كما القضية، بابتسامة واثقة جذابة لا تعرف المجاملة، كانت الشيء الأكثر صدقاً فيه، لذا كانت أكثر ما أحبته فيه.

أمطرها نظرات شغوفة، رفعها حتى السماء ثم تركها ترتطم بالأرض، حادثها مراراً، لكنها معتادة على طلب السكون تتوقف كلما استطاعت لتتمكن من تحديد وجهتها القادمة.

وتذكرت جملتها المعهودة التي لطالما رددتها بسخرية بين أصدقائها: "لا شيء سليم في سوى قلبي، وأنا لا أريد أن أتعبه". وبالفعل حافظت عليه نزيلاً طيباً في صدرها.

هل اشتقتِ لي؟ كانت سؤاله المعتاد في كل مكالمة هاتفية، تجيبه في كل مرة بمكيدة امرأة طيبة القلب: لا.

التقيا، كان سقف لقائهما عالياً منذ المرة الأولى، والمنازلة كانت شديدة بين متمرِسَيْن على الكبرياء والحياة.

بين أحمقين قادرين في لحظة على بعثرة المجموعة الشمسية وكواكبها، واللعب بالنجوم وإعادة رسمها على شكل زهرة أو بندقية أو تقاذفها ككرات الثلج، ثم وبسرعة، إعادة كل شيء إلى مكانه وترتيبه، كما لو كانا طفلين يخافان عودة الأم، ويحاولان إخفاء الأضرار التي تسببا بها خلال ثواني غيابها.

راقص قبلها، مشاعرها، أحاسيسها لا شيء أجمل! قالت في نفسها إنه الحب، لكن الأمور لم تكن واضحة بالنسبة له، لا أصعب من التعامل مع من يظن نفسه مركزاً للكون، والآخرون مجرد فائض.

قال لها: توسّدي صدري، ترددتْ، كررها، هيّا ما بالك، قالت أو يصلح أن يكون سنداً؟ كيف لا، وهي بحاجة إلى هذه الأحرف الثلاثة؟

اطمأنت وتوسدته، مرت ثوانٍ شعر بأشواك وصَبَارٍ حولها، إنها غابة مقفرَة.

حتى العشب يابس هنا، محض صحراء، شعرت بوخز في كل مكان من جسدها الرقيق، بعطشٍ شديد، لكن ما من جدولٍ يرويها ولا سماء تتلحفها أو أزهار تشمها، ولأنها غير كل الإناث، لم تستسلم أو تخرج، بل بقيَتْ في الحقل، راحت تزرعه وتعده ليكون حديقة عمرها، ستجعله محفوفاً بالأشجار والأزهار والعرائش، أهدته مشاعر وأحاسيس، لكن ككل السوريين معطوبي الحرب، لدينا عقدٌ من مصطلحات أو كلمات معينة لا يعترفون بها حتى وإن عاشوها، يبطّنونها بأسماء أخرى، لم تستطع أن تهديه الجرأة.

ودّتْ لو يقولها ولو لمرة، لأنها على يقين أن مثله من الصعب أن يخرج من حيز الأوراق والروتين، ومن الصعب أن ترفعه أنثى غيرها بتلك الطريقة.

كان يهمها أن تعرف من هي بالنسبة له، كان رجلاً عديم الكلام، صامتٌ وحسب، يريدها حسب مزاجه الذي لا وقت له، ومتى قضى نزواته يتذمر حتى من كلمة "صباح الخير" تقولها له وبخوف شديد من ردة فعله وكأنها ترتكب جريمة.

ودّتْ لو يكون بقربها، حولها، معها بكل شيء، لو يعيش معها أشواط عمرها، لكنه كان لاعباً من نوع آخر، أرادها فقط في الوقت بدل الضائع.

أيّة مهانة بحقها، وهي المتكبرة، لا.. لن تقبل، مهما بلغ من درجاتِ اغتنمها بفرصٍ ثورية عابرة، لطالما أحبت أولئك الذين يخونون وعودهم، على الأقل امتلكوا جرأة اتخاذها بلحظةٍ ما.

اقطع وعداً واخلف به، لن يسقط سقف السماء، هكذا تحترمك أنثاكَ أكثر.

بين الهاتف والآخر كانت تتخذ كل قرارات الأرض وتحسم كل المعارك وتعبر الأزمنة، نعم هذه المرة اتخذتْ قرارها، أنهتِ القصة مع نفسها بكل ثقة، وراحت تعيش أياماً من السعادة وإعادة الاعتبار والكرامة والراحة بدونه، لا شيء يؤرّق نومها ولا أحد يستحق دمعتها.

كانت في حيرة شديدة من أمرها، قررت أن تثبت لنفسها أنها تخطته، ارتبطت بغيره، لا تدري ما الذي يعطينا الحق بإفساد حياة الآخرين، إقحامهم في فشلنا وجعلهم أدوات لتجاربنا، فقط لكي نتخطى شيئاً ما في داخلنا، أو نثبت لأنفسنا أننا عكس ما نبدو عليه.

تم الموضوع بطريق تقليدية جداً، بخلاف قناعاتها تماماً، لا وجود للحب، هذا ما خُلِصَتْ إليه .

حاولت أن تكون طبيعية في البداية، وبمجرد مضي يومين، أدركت الجحيم الذي ورطَتْ نفسها به.

لم تكن من النساء اللاتي يستطعن المجاملة أو التصرف عكس مشاعرهنّ، أو يمكن أن يغريهن ترف المال، ويعوّضهن عن ترف الروح الذي أسست لها طويلاً، لكأنها هدمت استثمارها بنفسها، سمحت للفائدة والرشوة والنصب بالتغلغل في كيانها.

هي على وشك الانتحار بل الانهيار، استغربت هذا الطفيلي في حياتها، لم يستطع أن يشعرها بشيء سوى إمكاناته المادية والترف الذي ستعيشه بجانبه .

كلّما نظرت إلى تلك الحلقة حول إصبعها النحيل، شعرت وكأنه حبلٌ حول عنقها.

أين علبة السجائر، كانت الدواء الوحيد لها مع سهرها الدائم.

فكرت بحلب، وبأن آوان العودة ربما قد آن، فهما متشابهتان، تلك تعيش حرباً ودماراً، وهذه كذلك مرّت الحربُ بجسدها وروحها، وما من مموّلٍ أو دولٍ صديقة توقِفُ الأوجاع.

بالفعل استقلت الحافلة إلى المعلوم المجهول، في الطريق مرت بحواجز تابعة لكتائب إسلامية، كانت ضربات القلب مسموعة، الجميع خائف، يقرأ القرآن، وما أن يجتازوا الحاجز حتى يشهقوا ويسمح كل منهم لنفسه المكتوم بالخروج.

وصلَت إلى طوق نجاتها، أو ربما مماتها الذي كانت تبحث عنه، آهٍ يا حلب.. كم من الآهات لزمنا لكي نصل إليك ونتنفس هواءك!

تغيّرت حلب وتغيرتْ هي، كأن عصوراً مرت بينهما، زمنٌ من اللاإنسانية، زمن من الحرب والحب مزقهما، وبرغم كل شيء ظلت محافظةً على دفئها، لا كهرباء، لكنْ لا بأس، فحلب لا تحتاج، نورها كافٍ، ولا ماء فيها، لم تصدّق الرواية، فكيفَ رَوَتْها حلب؟ جاءتها عطشى، متعبة، وخرجت نضرة متألّقة.

انتهزت كل دقيقة وزارت حتى الأماكن الخطيرة، كيف لا، وهي على الخط الأمامي من الجبهة وجهاً لوجه مع الموت، في المساء كانت تنتظر صوت القذائف بلهفة كي توقف الزحام برأسها، غريبٌ كيف يصير برميل متفجر بحجم حبة مهدئ! في الحرب كل شيء ممكن!

أكثر ما آلمها أنها لم تجتمع بأصدقائها التي لا تدري كم بقيَ منهم، تسير في نفس الشوارع، مع فارق وحيد هو الحواجز، مَنْ وضَعَها، وكيف السبيلُ إلى رفعها؟ تساءلَتْ!

أيكون الديناميت! الذي ربما سينسف كل شيء، ولن يبقى سوى الحاجز.

انتهت رحلتها ولم يخترها الموت، بل وضعها مجدداً في مجابهة الحياة، دون مجال للفرار .

عادت من حلب، غريب كيف استطاعت تخطي كلّ ذلك الدمار ورؤية الجميل فقط، وإعادة هيكلة نفسها وفقَ ما ترغب أن تكونَ عليه، كيف رأت ما وراء الدمار، وكيف لم يستطع هؤلاء الرجال عدم رؤية ما وراء جسدها! يا للمفارقة !

عاد الهدوء إلى نفسها، وها هي تنام بلا تعب، وتصحو، تغني وتملأ البيت صخباً من جديد .

لكن سكون البحر لم يستمر طويلاً، عادَ الهياج مجدداً وبجنونٍ، تتساءل هل اختفى ليعود، كانَ بداخلها، في مسامها، لا لم يغِبْ قط وعادا للمهاتفةِ والأحاديث.

لقد أخطأ تقديرها حين ظن أنه يشتريها في المنفى ببعض المال، وأخطأت تقديره حين طالبته أن يكون أباً وأخاً وسنداً وصديقاً هو ليس مضطراً لكل ذلك.

فَهِمَتْ أن قشرة الجوز لا تعصر بحثاً عن الخمر، وأن الحل في أن تثور، وتتبعثر

أن تحرق وتغرق، شرط أن تكون في النهاية أنثى.

جاءت لحظة غير منتظرة، كتب لها: "نحن أصدقاء وحسب"، وانتهى زمن التواصل بينهما.

لم تعدْ تعرف كيف يحيا العاشقون ويموتون إلكترونياً! تُرى من الذي خسر؟ ربما ليس مهماً، ففي الحب والحرب الكل خاسر !

باتت الآن مجرّدة من كل شيء، باتت عاجزة عن تصديق أي شيء أو الثقة بأي أحد، أيقَنَتْ أن كل ما يخرج من الحرب يخرج مشوّهاً، حتى الحب .

باتَتْ تخشى ظهرها، فلا تقف مكشوفة الظهر، هي الآن شبح امرأة يمشي على الأرض، أنثى بنكهة الحقد والكراهية والانتقام، ولا شيء يمكن أن يشفيها .

لكن القدر لم يتركها، فكان لقاءها بعبد العزيز، الهادئ، طيب القلب، ماءٍ يتحدر بلطف، يتخلله عطرٌ ومسك، كانَتْ عصية الدمع، لكنه رأى دمعتها الحبيسة، لم تكن بحاجة للكلام كي يفهمها، فقط ينظر إليها فيعلم ما بداخلها.

أهداها عمراً جديداً، ساعدها كي تلملم أوراقها وتعيد ترتيب وقتها وسنواتها حسب رغبتها، حثها على النهوض مجدداً، علّمها أن تحب نفسها قبل أي شيء، أعاد لها ثقتها بالله، وبالخلقِ أجمعين، كان السند مع أنها لم تطالبه بشيء، كلّما احتاجته وجدته.

جلسا معاً في ذلك المقهى المحبب، عند تقاطع الشارع الرئيسي أرادت أن تخبره أنه وحده قدم لها الهدية الأجمل، لكنها لم تنطق بكلمة، خانتها الكلمات.

خرجا من المقهى معاً، عَبَرتْ مسرعة دونما انتباه لإشارة المرور، خفق قلبه بشدة وهو يصيح: انتبهي!

التفتت إليه: قوانين الله.. قوانين الناس والأهل.. دَعْني اخترق القانون لمرة واحدة دون تأنيب ضمير، وَمَضَتْ.

فضائي للأبد

قصة فلك الخالد

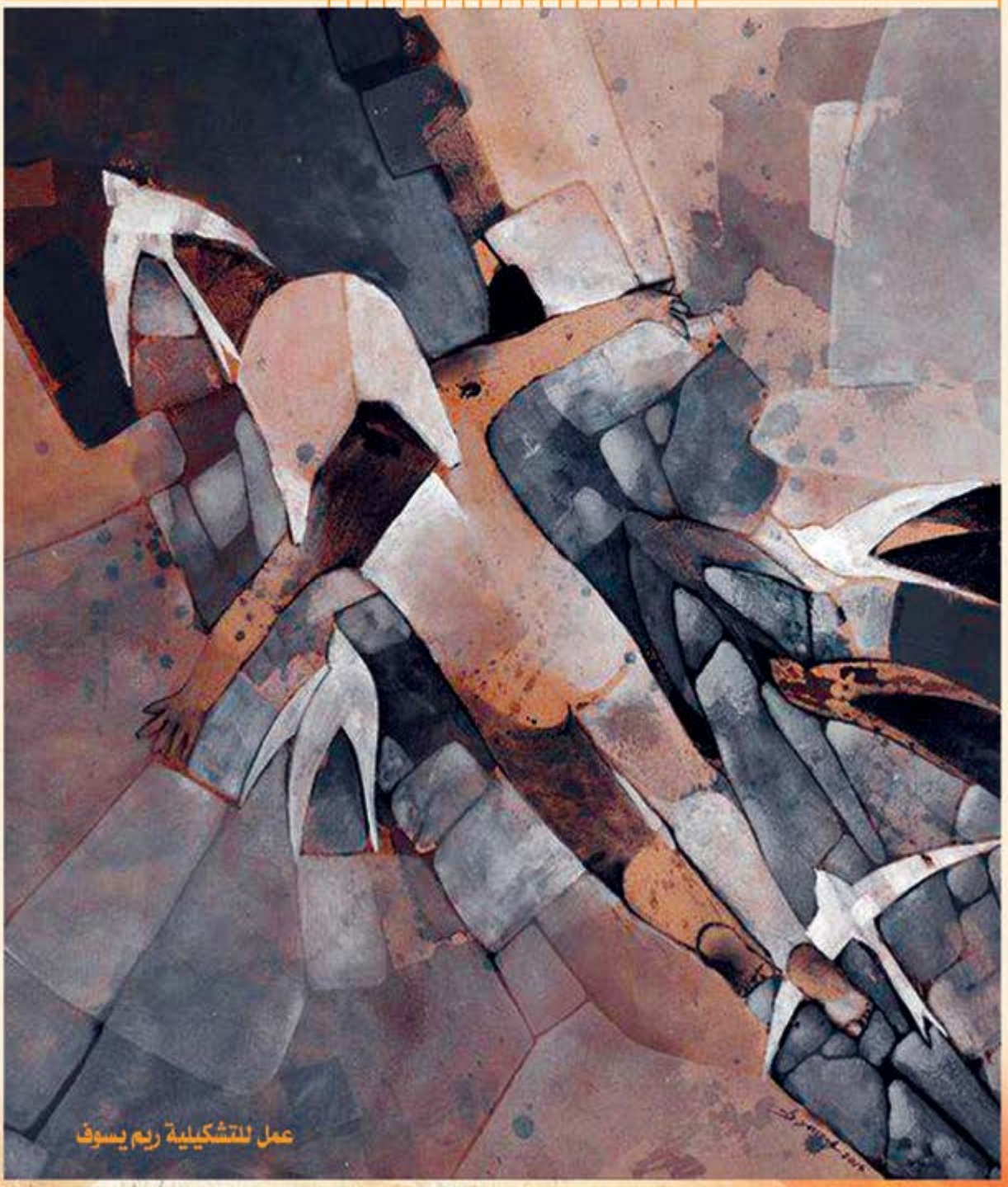

عمل للتشكيلية ريم يسوف

"يا الله هالبنت مجنونة". هكذا كانت تقول أمّي عندما أتصرّف تصرّفاً لا يعجبها. وتبدأ بسرد قصّة اختيار اسمي.

"عندما وضعتها كانت نساء الحيّ قد اجتمعنَ في المنزل. ينتظرنَ قدوم المولود (الذكر). وكانت المفاجأة كبيرة عندما جاءت وعرفنَ أنّها أنثى. وبدأت تعابير الشفقة تنهال عليّ":

"يا شحارك يا مربومة! هذه البنت السابعة. حتّى الأسماء نفقت". وهكذا بقيتُ بدون اسم شهرين كاملين. إلى أن رآها مجنون الحارة. وقال: هذه ابنتي. وأنا سأسميها.

هذه القصّة لطالما سمعتُها من أمّي. وكبرتُ وبقي الاسم اسمي. وبقيتْ في ذاكرتي قصّة المجنون الذي اختار لي اسمي. كرهتُ اسمي. أشعر بالاختلاف. لكن هل هذا الاختلاف هو الجنون الذي ينعتونني به؟ أم أنّه اختلاف الأفضل؟

لا. إنّه اختلاف الأفضل. هكذا أخبرني شابّ وسيم خِلسةً. عندما التقينا صدفة في أوّل مظاهرة أصرخ بها في شوارع بلدتي. التي طالما وصفت صوتي بالعورة.

كان يهتف بأعلى صوته. وأردّد خلفه. وأهتف بأعلى صوتي ويردّد هو. وكأنّنا الاثنين ندفن بهذا الصراخ كلّ ما علق بنا من تشوّهات الزمن.

كتبتُ له بعض الأهازيج ليهتف بها. بتّ أترقّبُ كلّ جمعة المظاهرة تلو الأخرى. لأسمع الهتاف الذي يحملني لاختلاف أجمل.

يمرّ من أمامي. يهمس خِلسةً: أنت ثورتي. أكبرُ فأصل السماء وأقطف النجوم باقةً. لأنثرها في الجمعة القادمة على جموع المتظاهرين. تأتي الجمعة وأنثر نجومي. ويهمس لي: كتبتُ اسمك على شجرة السروِ العتيقة هناك "فضائي للأبد".

أذهبُ إلى تلك السروّة. وأكتبُ: لا أحبّ هذه الكلمة (الأبد). إنّها تذكّرني بتلك الصورة التي طالما مقتّ رؤيتها. ونغني معاً: "هونيك في شجرة ورا النبع الغميق محفور لي صورة على كعبها العتيق".

تتوالى الجُمع. أهديه وردة. يهديني هتافاً "يا محلاها الحريّة". وأذهب إلى السروة العتيقة بعد كلّ مظاهرة. لأقرأ كلمة وأكتب أخرى.

ذات يوم اقتحم البارود بلدتي. وطغت رائحته على رائحة الزهور. هل تأثّرت سروتنا بالرائحة. أم أنّها مازالت تقاوم؟ أسئلة دارت في جعبتي وأنا مختبئة مع جموع الأطفال والنساء في القبو.

نعود ونلتقي ثانية. لكن هذه المرّة لم تكن الزهور وحدها. كان هناك بعض من رائحة البارود الذي أرادوه لنا. أنثر الأرز وبتلات الأزهار التي جمعتها فوق المتظاهرين. لكن لا يصلني عطرها. لقد شابها البارود. وأذهب لسروتي لأجده كتب لي: غداً عندما ينتشر العطر وبفوح شذاه. سننجب طفلاً وأسميه أحمد. لا.. بل سلطان. لا سأسميه عليّ. لا بل زردشت. لا.. بل أكتب له: سننجب طفلة ونسميها زينب. لا. بل سارة. سأسميها ماريا. لا. بل..

نختلف قليلاً وكثيراً على الأسماء. ثمّ نتفق. سننجب طفلاً وطفلة. ويكون اسم الطفلة إنانة. واسم الطفل آرام. ونمضي. وتمضي الأيّام معنا. وتنتشر رائحة البارود وتتزايد. لم أعد أزور سروتي كلّ جمعة. ولم أعد أنثر البتلات كلّ جمعة. أذهب بين الفينة والأخرى إليها لأرى بعض أغصانها بدأت تتكسّر. تستحضرني أغنية طالما غنيناها معاً. "يا شجرة الأيام غيرنا الهوى. فرفط لنا الورقات وعرينا سوى".

وتكبر وتبتعد المسافات. يثقل الهواء بالبارود ويحصد العطر وشذاه. أترك مكاني الأوّل مرغمة. أبتعد عنه. أقف خلف الحدود التي طالما تحدّثنا بها. حين قلتَ لي: "نحن فضاء لا حدود له. الآن وأنا خلف الحدود أرسل لك أيّها الوسيم في كلّ لحظة ألف رسالة. ولا يأتيني جواب. أحدّثك عن الصمت الذي يحيط بي. وأتذكّر صمت الأمكنة التي ألفناها وألفتنا كم هو مؤلم وحزين. أتذكّر إسكاتها بقرقعة نيزك قادم من السماء على هيئة برميل. نكبة وفجيعة تجمّد دموع المكان وتصمته عنوة. فيبكي ولا يسمع نحيبه أو يتحسّس ملوحة دموعه إلّا عاشقه وبانيه. ويبقى صمته ناطقاً بكلّ اللغات. يلعن الطغاة. ويبصق على الصمت المُتواطأ عليه من الجميع.

اليوم أيّها الوسيم حدّثني أحد الأصدقاء الذين تعرفت عليهم في غربتي الموجعة. حدّثني عن اشتياقه لمكانه الأوّل وعن غربته الأربعينية. حدّثني عن وصيّته: "بأن يدفنوه واقفاً ويولوا وجهه صوب سوريا" قالها بصوته المتعب من سنين الغربة. أجبني: هل سأوصي نفس الوصيّة؟

طال مكوثي هنا. وطال مكوثك هناك. أنظر إلى كلماتي كيف أصبحت. هنا وهناك. أمّا أنت فهناك. وأمّا أنا فما استطعتُ أن أكون هناك. ولا أستطيع أن أكون هنا. ما هذا الشتات الذي حلّ بنا؟؟ أجبني؟

اسمع الآن سأحدّثك عن الفتاة الفلسطينيّة. إحدى صديقاتي الجدد في مكاني الطارئ هذا. في كلّ يوم نجلس سويّة ونتحدّث عن هناك. أحدّثها عن "هناكِ" وتحدّثني عن "هناكِها" أستمتع بالهناك عندها. ولكن أسترق بعض الزمن لأشرد في سلسالها الذي طوّق عنقها. أشرد بعيداً وأنا أتأمّل المفتاحين العتيقين اللذين ورثتهما عن والدتها. مفتاح بيّارات الليمون ومفتاح اليرموك. وأتلمّس مفتاح بيتنا في حقيبتي. لأسألك الآن: هل هناك مَن سيحمله بعدي؟

أجبني أيّها الوسيم: هل ابتلعتك البحار. أم نزلت عليك لعنة من السماء؟ أم حلّت بك لعنة جراد الصحراء؟ هل أنت بعتمة تلعنها في اليوم ألف مرّة؟ وشجرتنا ما زالت تنتظر زيارتنا. أم حلّ بها ما حلّ بنا؟

"ويا ناطرة وحدك على مهبّ الهوى. متلك أنا شجرة على مفرق طريق".

هل ما زالت منتصبة في وجه الأعاصير؟ هل ستورق من جديد ويستظلّ بفيئها عاشقان جديدان.. ويلتقي عندها آرام وحريّة؟

الطريق الصاعد إلى سجن المزة

قصة رماح كلول

عمل للتشكيلية نجوى صليبي

جدران السجن العالية أعاقت التواصل بيني وبين والدي، لكنها كانت تمهد لقرار حاسم في حياتي.

طوال تلك الليلة كنت أذهب إلى غرفة أبي لأراه وأتفحص وجهه، أراقب تنفسه ودقات قلبه.

كانت ليلة طويلة بلا نهاية رفض النهار أن يأتِ.

صوت حمزة كان عالقاً في رأسي، لم أستطع أن أمنع صراخه من تمزيق كل شيء

أبكي تارة، أشرد تارةً أخرى، وأفكر في أمه المفجوعة بابنها، وتارةً أجد نفسي هاربة من سريري إلى سرير ابني لأتأكد مرة أخرى من وجوده في المنزل، وأنه على قيد الحياة.

بعد تعب التفكير والبكاء جاء النوم، لا أعرف كم من الوقت نمت، ولكنني صحوت على خربشة قطي المدلل (جاكوار) على باب غرفتي، وكان صوت مواءه الناعم يقول "أنا جائع". كان النعاس ما زال يقيد أهدابي ويمنع جفوني السماح لضوء الصباح أن يدخل لعيني، لكنه لم يمنعني من التفكير بالأطفال الجائعين، الذين لا يصلهم الحليب، بالأطفال المرضى الذين منع الدواء عنهم، بالمسنين المحتاجين أيضاً للدواء، بكل شخص حرم من الحصول على احتياجاته.

كان القرار آتياً من خمول النوم وعمق النعاس، من أفكار وذكريات قديمة غير مرئية، ولكنها صارت واضحة، وبحاجة لأن تأخذ معالمها وتحدد خطواتها القادمة، نهضت من سريري وأنا أشعر بالفرح لأنني اتخذت قراري.

لم يوقظني زوجي لنشرب القهوة كعادتنا كل يوم، ولم يوقظني أولادي لتناول الفطور، ربما أحسّوا بأني لم أنم جيداً تلك الليلة.

حضرت فنجان القهوة وأمسكت الهاتف، توقفت للحظة لأرتب الكلمات في رأسي، كيف سأخبرها بموافقتي؟ كيف سأخبرها أنني معهم تماماً، كيف وكيف؟ سمعت صوتها بكلمات مفعمة بالحنان: "طمنيني عنك."

نقلت بسرعة قراري دون أن أجيبها عن سؤالها، أنا معك كريستين وموافقة، سأساعدكم في تحضير الحلويات، متى سنلتقي لنتفق على التفاصيل؟

فأجابتني أنها سوف تحضر الطحين والسكر، لا سوف تحضر الزيت والخميرة

-ما رأيك أن تحضري الحليب أو الفستق للحشوة ؟ اختاري.

صمتُ ثوانٍ لأفكر في طلبها، لكن القرار كان سريعاً: سوف أحضر الحليب.

اتفقنا على الوقت والمكان.

شعرت بالسعادة للقرار الذي اتخذته أخيراً، وكنت لم أر منه سوى الجانب الإيجابي، أما الجانب السلبي فكان متخفياً تماماً عن ذهني وبعيداً عم تفكيري.

كان القط يدور حول قدمي ويحاول أن ينبهني لوجوده، لكنني استمريت في تجاهله.

لأن ما يدور في بالي وما يشغل كل تفكيري هو حمزة، سامر، وكل الشبان الذين اعتقلوا أو قتلوا في المظاهرات، العائلات المفجوعة بأبنائها.

لم تكن تلك الليلة أطول من الليلة التي كنت أحلم فيها برؤية والدي المعتقل في سجن المزة، حيث الزيارات ممنوعة لأكثر من ستة أشهر.

كنت أرغب أن يراني والدي بفستاني الجديد الذي خاطته أمي وقالت لي: "أميرة، خذيه وارتديه". طوال الأشهر الستة الماضية كان جسدي الصغير ينمو بسرعة ويزداد طولي بشكل ملحوظ.

قمت من سريري تلك الليلة، لبست الفستان ونظرت إلى نفسي في المرآة وأنا أتخيل والدي

وهو يراني، وأسمع كلماته وهو يقول "أصبحت أميرة" ورحت أسأل نفسي هل أصبحت يدي طويلة لأستطيع أن أصافح والدي؟ سؤال ألحّ عليّ كثيراً.

بعد عناء طويل جاء الصباح، وبدأنا نحضر أنفسنا لزيارة والدي في السجن القابع برأس الجبل في منطقة المزة بأجمل مدينة: دمشق البهية.

لبست فستان الأميرة، وكنت كلما سنحت لي الفرصة أعود للمرآة لأتخيل عيون والدي الزرقاء التي تلمع كزرقة مياه بحر.

حزمت والدتي الأغراض، رحنا نساعدها في نقلها إلى السيارة التي استأجرتها، صعدنا السيارة وبدأت رحلة الزيارة، بعد نصف ساعة تقريباً وصلنا لأول حاجز، أوقفنا الجندي فأعطته أمي تصريح الزيارة ودفتر العائلة (لأنها تعرف بالضبط ما يريد).

تأكد الجندي من الأوراق والتصريح وعدد الموجودين في السيارة وما هي قرابتهم من السجين (على ما يسمونه) وأخذ هوية السائق كي يعود بعد إيصالنا.

بعد مسافة ١٠٠ متر تقريباً كان الحاجز الثاني، ومرة أخرى أوقفنا الجندي وكان بكامل عتاده، أخذ تصريح الزيارة ودفتر العائلة وقال لوالدتي يا خالتي لا يستطيع السائق المتابعة معكم إلى الأعلى، يجب أن تنزلوا هنا ويعود السائق بسيارته (تعليمات جديدة)، عندها نظرنا لبعضنا وتساءلنا: هل سنحمل كل تلك الأغراض إلى أعلى الجبل! بدأنا بالتذمر، نظرت إلينا والدتي وقالت: هيا، ليحمل كل واحد ما يستطيع حمله وأنا سأحمل الباقي.

كنت أريد أن أسألها: وفستاني، فستان الأميرة!

ولكن كان علي أن أقوم بما علي، وهو المساعدة في حمل الأغراض لأعلى الجبل.

مسافة طويلة لا أذكرها تماماً، لكنها ربما زادت عن مئتي متر صعوداً، لنصل إلى المبنى المشيد في قمة الجبل! وعلى بابه لوحة كبيرة مكتوب عليها: (تأديب – تهذيب – إصلاح).

عندما وصلنا كانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر تقريباً، صرنا نركض أنا وإخوتي حول والدتي ونضحك، ولكن بين الفينة والأخرى، كنت أنظر إلى وجه أمي لأرى الدموع في عينيها، أتوقف عن اللعب برهة وأتأملها، ثم أعود إلى اللعب، إلى أن اتى المساعد (رتبة عسكرية) أبو حبيب بطوله الفارع ولونه الأسمر، وصلعته اللامعة وابتسامته اللطيفة وصوته الأجش: "زيارة عائلة."

نعود ونحمل الأغراض مرة أخرى، وندخل إلى ساحة السجن، ونضع الأغراض في غرفة التفتيش ليقوموا بتفريغ الأكياس ويتفحصوها ويأكلوا منها، كان هناك شخص لم أعرف رتبته يجلس جانباً، هذا الشخص لم أجرؤ ولا مرة على النظر في وجهه، ولا أعرف منه إلا أنه كان مكوراً، رأسه مكور، وكرشه المكور يسبق ركبتيه ويديه الضخمتين اللتين كانتا تمتدان لأكياس الطعام، لتخرج مليئة ويدكها في المغارة، لهذا المستوى فقط استطعت أن أرى، ولكني لم أعرف عن عينيه شيئاً.

ركضت باتجاه القضبان وكان هناك شبكين من القضبان، يقف السجناء في جانب وفي الجانب الأخر تقف العائلة، وفيما بين الشبكين كان يقف جنديان بسلاحهما الكامل، وجدت والدي هناك، ناداني، مددت يدي بسرعة، أردت أن أعرف إذا ما كانت ستصل لأصابع والدي، يا للفرحة، لم أصدق نفسي، وأخيراً لقد لامست أصابعه .

نسيت الفستان ونسيت تغيرات جسدي الصغير، لم أعد أفكر بشيء سوى أصابعي التي لامست أصابعه، رائحة والدي علقت على أصابعي، رحت أشمها.. أنظر إليها، فعليها بصمات والدي .

أغلقت أصابعي ووضعت يدي جانباً ولم أعد أستخدمها، فرحة لم أصدقها، لم أسمع ما دار من حديث بين والدتي ووالدي وإخوتي كانوا يتكلمون ولكنني لم أميز ولا كلمة، كان عقلي يفكر بأصابعي وكيف سأحمي آثار والدي عليها، فجأة سمعت صوت المساعد أبي حبيب: "الزيارة انتهت ."

وعندها نظرت إلى والدي، ومددت أصابعي مرة ثانية وعانقتْ أصابعه الدافئة أصابعي، قال لي "أميرة: فابتسم وابتسمت وخرجت سعيدة.

كانت يدي اليسرى تحمل يدي اليمنى وتحميها، ورحت أدور حول نفسي ليدور الفستان حولي ويرقص على دقات قلبي، كان طريق العودة جميلاً مفرحاً، ومن حين لآخر أنظر إلى يدي اليمنى وأتمعنها، أقبلها ثم ألملمهما لتعود إلى مخبأها بين أصابع يدي اليسرى .

أطلب من إخوتي فتح باب السيارة وإغلاقه، ولم أستعمل يدي اليمنى، كانت المشكلة عندما عدنا للمنزل، حيث قالت أمي: سأحضر الغداء بدّلوا ملابسكم واغسلوا أيديكم لتناول الطعام، وكانت الصاعقة، قلت لا، لا أريد أن أغسل يدي اليمنى، آثار أصابع والدي، رائحة والدي..لا..لا.. لن أغسل يدي .

أصرت والدتي ورحت أرجوها فقالت: إذاً اغسلي يدك اليسرى ولا تستخدمي يدك اليمنى، في تناول الطعام،

فقلت لا، "أصابع والدي نظيفة". ولكنها أصرت على ذلك ولكنها أصرت على ذلك وكانت عملية تناول الطعام صعبة باليد اليسرى، فراح الطعام ينسكب على ملابسي وفتات الخبز يتناثر حولي، وأمي ترمقني بنظراتها.

دخلت غرفتي وأنا أشم رائحة يدي اليمنى وأقبلها، وأشعر بدفء والدي وكأنه معي وبجانبي، رفضت دخول الحمام كي لا أغسل يدي، ولكن في النهاية اضطررت لذلك، لم يكن هناك أي خيار آخر.

ليله طويلة جعلتني أعود لكل تفاصيل حياتي، تلاحقت الذكريات بإلحاح وكثافة، لم تترك لي مجالاً لأختار منها، صور الماضي كانت واضحة ومتتالية، وأحياناً عشوائية بمكانها وزمانها مرة من هنا ومرة من هناك، لكن ما أحسست به هو الشعور الذي رافقني طوال عمري.. ظلم وأسى لم أرغب أبداً أن يشعر به أحد، أردت الدفاع عن الناس وعن خياراتهم وقراراتهم، حتى لو اختلفت معهم، أردت أن أقول لهم أنا معكم.

من اللحظة اللتي دخل فيها رجال الأمن إلى منزلنا بأشكالهم الغريبة ووجوههم الخالية من الملامح، وعيونهم الجامدة وأجسامهم المتخشبة، جاؤوا وأخذوا والدي بملابس النوم، من اللحظة التي رأيت فيها دموع أمي وشعرت بارتباكها، لم أفهم حينها لماذا تبكي، راحت تتصل بإخوتها وبأصدقاء والدي لتخبرهم بما حدث ولتشاورهم ماذا عساها تفعل .

ذهبت بعدها لتستشير محامياً..أحد أصدقاء العائلة، ولكن تلك الأجساد المتخشبة والأشكال الغريبة والعيون الجامدة، عادت مرة أخرى، دخلوا من باب الحديقة الخلفي، فالباب الأمامي أقفلته والدتي، وراحوا يشدون أوراق شجرة العنب ويرمونها أرضاً، قطفوا العناقيد الخضراء الصغيرة، وبدؤوا يفركونها بأيديهم الخشبية، ويتركونها تسقط فتاتاً متناثراً على الأرض، نظرت إلى عناقيد العنب المتناثرة أشلاءً وتذكرت كلام والدي: " هذه سنة خير، أول مرة سنأكل من دالية العنب."

شعرت بالانزعاج.. لا ليس انزعاجاً فقط.. بل كان غضباً... وغضباً شديداً.

غضباً جعلني أصرخ في وجوههم: "هذه شجرة والدي، اتركوها، لا تعبثوا بها، هذه المرة الأولى التي تحمل عناقيداً، رد أحدهم وكان الأضخم بينهم: "ارموها بعيداً .."

صوت حمزة عاد إلى أذني ليعيدني إلى واقع قاسٍ، صوت صراخه من الألم، صوت صراخه من الرعب والتعذيب، دموعه، دموع شاب صغير لم ير من الحياة شيئا بعد، دموع والدته، يا إلهي.. يقشعر بدني كلما تذكرتها، وأنظر إلى صورة ابني وأدعو الله أن يحميه، أحاول إبعادها وأقول لنفسي: لا.. لا.. لا أستطيع أن أستمر بهذه الطريقة، هذه الصور لن تفيد بشيء،

لا بد أن يكون هناك حل وعمل نقوم به، لنعيد للواقع توازنه.

فاجأني صوت رنين الهاتف الملحّ، رفعت السماعة، كانت صديقتي كريستين، قالت: "لا تنسي نزار... سيكون معنا، فهو يحب تحضير الحلويات ومن الممكن أن يكون أفضل من أي سيدة."

فضحكت وقلت: لا، سنرى من الأفضل، لا تهتمي سأكون عندك وأنا جاهزة، سأحضر معي مربولاً، هل هناك شيء آخر عليّ أن أحضره؟ فكان جوابها: لا هذا يكفي، انتبهي لنفسك، إلى اللقاء.

-إلى اللقاء!

حضرت نفسي للذهاب، وكان قطي المدلل ما زال يلاحقني ويذهب باتجاه صحنه ويعود، ليدور حول قدمي، فوضعت له وجبته المفضلة، وفتحت الباب، وخرجت لشمسٍ، لفترة، لقرار لن أعود عنه.

حاجز الحب والموت

قصة فاتن رحال

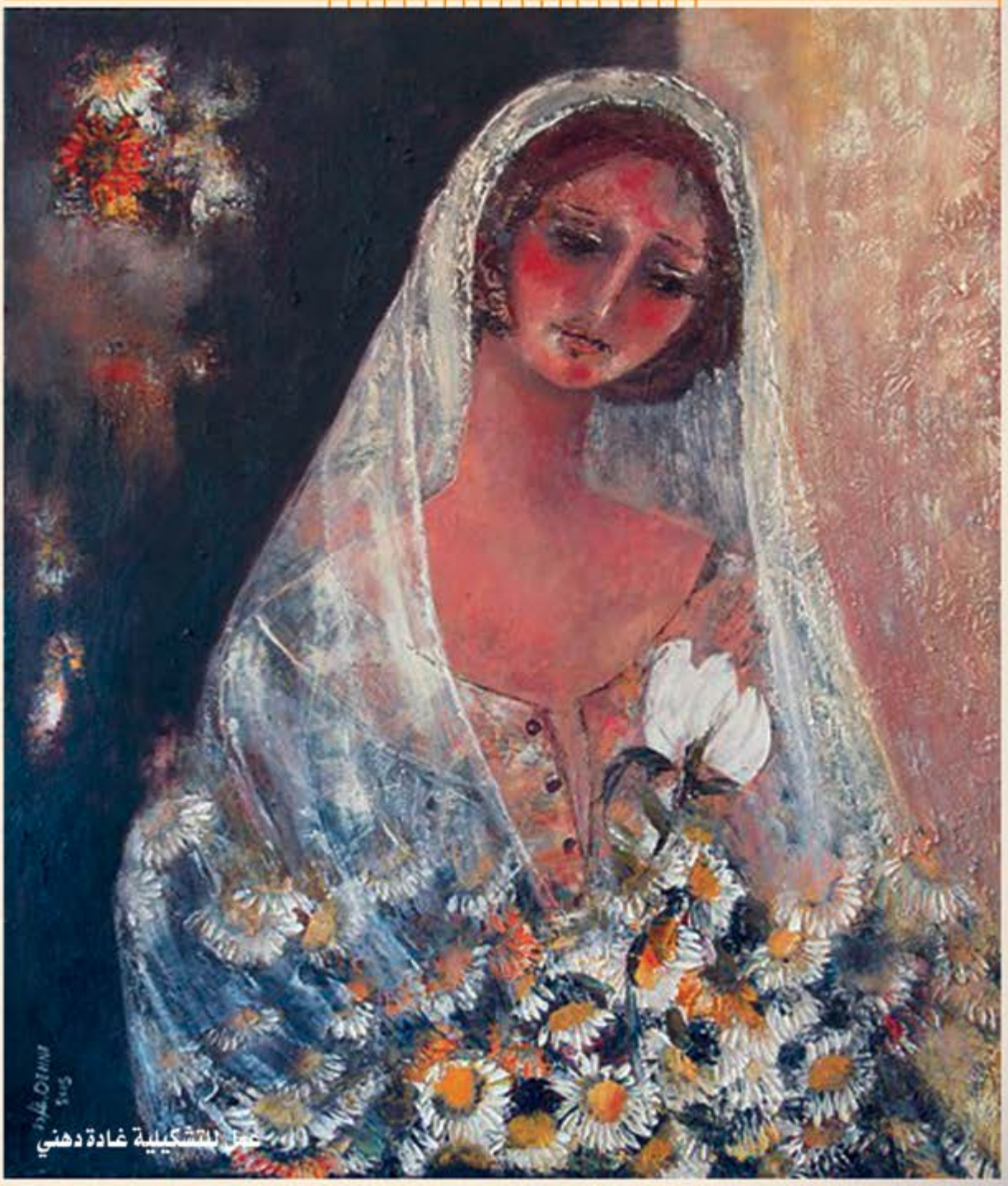

الرسم للتشكيلية غادة دهني

ألملم أشيائي، تفاصيلي الصغيرة، أضعها في حقيبة لا تتسع لكل خيباتي، سأترك الكثير وراءي صوته يحطم بقايا تردد في ضميري، أخبرتك مراراً أنك تخسرني، أرجوك أريد البقاء ليس لأنني سعيدة هنا، بل لأنه المكان الآمن الذي اعتدت الملل فيه.

صوته يملأ المكان دون أن يصلني، وشتائمه تكسر آخر قيودي.

(قلت لك لا تخرجي في المظاهرات، لا تتدخلي في السياسة، من أنت ليكون لوجودك أي تأثير؟ انتبهي لبيتك وأولادك، أوليس هذا ما أفعله وقد تحقق الحلم).

أقود السيارة مسرعة، أسمع إحدى أغاني الثورة الحماسية، أحاول إبعاد صورته المشوهة في رأسي، هذا القوي الذي كان يفرض غباءاته بلياقة بدنية عالية غدا قزماً ضعيفاً بعدها.

وقفت على حاجز للثوار، تنفست بعمق، ملأتني النشوة إنه هواء الحرية، فهذا الحاجز يعلن عن بداية طريقي القسم المحرر من المدينة.

تقدم نحوي استأذن أن يفتش السيارة رفعت رأسي لأتمكن من رؤيته اعتذر عن تأخيري، الإجراءات الأمنية مشددة بسبب إشاعة خبر وجود سيارة مفخخة، غادرت ولم تغادرني رائحة الرجولة لتسكن كل خلايا روحي.

أقمت في إحدى المناطق المحررة، أصبح العمل صمام الأمان لضبط كل الصراعات داخلي.

رغم ذلك كنت أجد المبرر لأتواجد على الحاجز، أو لأحدثه حين يأتي إلى القرية، أصبح هاجسي وحزني وفرحي، أنتظر عودته بعد كل معركة لأستأنف حياتي من جديد، يُسمَع صوت الرصاص من بعيد ينبئ عن وصول الأبطال، عائدين من إحدى جبهات القتال، يخرج كل أهالي القرية لاستقبالهم، أخرج معهم، أبحث عنه بين الوجوه المتعبة والمغبرة، أراه يتقدم نحوي رائحة المطر والطين تفقدني وعيي، لم أعد أسمع إلا صوت خطواته، العالم يتحرك بعيداً عني، هي لحظات بل خطوات اختبرت فيها كل معاني الحب والرغبة والخوف.

وقف أمامي ينظر إليّ، وأنظر إليه، أنتَ بطلي، وأنا انتصرتُ من أجلِك، أصبحتُ سيدة النساء، من أجلي يقاتل الرجال ومن أجلي ينتصرون.

عشت أمجادي لأشهر كانت كافية لملء روحي الخاوية، وسط كل هذا الزخم، كل المشاعر في حدودها القصوى، شيء ما يحدث أو سيحدث، هدوء وترقب حذر يسيطر على القرية، تحول إلى توتر وهياج، المعركة الكبرى لتحرير المدينة تقررت، بدأ استنفار الثوار ودعاء الأمهات، وحانت ساعة الصفر لبدء المعركة.

أربعة أيام توقفت فيها تفاصيل الحياة، إلا عن أخبار المعركة كل دقيقة تحمل خبر انتصار، أو هزيمة أو شهيد، في اليوم الخامس، السادسة صباحاً، تستيقظ القرية على أصوات التكبيرات في المساجد وزغاريد النسوة، الأطفال يتراكضون ينقلون الأخبار، انتصر الأبطال، تحررت المدينة، جحافل جيش النظام تنهزم أمام عزيمة الرجال، ساعات من بهجة ونشوة النصر، الصبح الفرح تحول قلقاً، أخفض صوته، سيصل الثوار بعد قليل، هل ستكتمل فرحتنا؟ هل الجميع بخير؟ لا، هناك أنباء عن شهداء، كانت هذه المعركة نقطة تحول لكثير من المشاعر العالقة، ربما هي طبيعة الأحداث الكبيرة.

عاد من المعركة يحمل أعزَّ اصدقائه على كتفه، دفنه بصمت ودفن معه جزءاً من حياته.

عدة أيام مرت دون أن أراه، لم أعد أحتمل، دائماً كنت أجد المبرر للقائه، كان واقفاً قبالة النافذة شابكاً يديه وراء ظهره، بدا أكثر هيبةً ببدلته العسكرية النظيفة، لا أريد أن يلتفت، يعجبني انعكاس الشمس على خصلات شعره الطويلة وتلك المساحة الشاسعة بين كتفيه تتسع لخريطة وطن، التفت إليّ ببطء لم تزل يداه وراء ظهره لم ينظر إليَّ مباشرةً، انتظرت أن يخبرني كم هو حزين لأخبره كم أحبه، وخلافاً لتوقعاتي (دعا الله أن يغفر لنا خطايانا).

خرجت بقناعاتٍ غريبة، كل حقيقة هي خطيئة، والكذب هو الصواب، وصلت إلى المنزل لا أعرف كيف، لكني وصلت لأرى زوجي قد وصل، لقد دمر منزلنا بعد أن ضرب طيران النظام المدينة بعد تحريرها، ضمن سلسلة جرائم الانتقام يتكلم ويتكلم وطيارة، برميل، دمار، جارنا مات، أطفال تحت الأنقاض، حاولت إنقاذهم، ماتوا، سنموت، خائف مرتبك يتكلم بجمل غير مترابطة، أو ربما تصل لإدراكي المعطل مفككة.

أجمع أشيائي من جديد، لا أحتاج لحقيبة كبيرة هذه المرة، فلم يتبقَّ إلا القليل من شظايا روحي، لم أركب سيارتي هذه المرة، طلبت من سائق التكسي إيصالي إلى الحدود التركية.

في كل صباح أرتدي ثيابي للذهاب إلى العمل، أسمع الأخبار لأطمئن على وطني، أصل إلى المخيم، يلتف الأطفال حولي، نغني لسوريتنا الحبيبة، سنعود يوماً لنبني وطن التين والزيتون.

الحلم الضائع

قصة لينا الخياط

عمل للتشكيلية هزار بيكباشي

(عندما تصل إلى مرحلة الانفجار، فإنك تتحول إلى قنبلة تؤذي جميع من حولك وتدمر نفسك، والغريب أن الآخرين يرون هذا الضرر الذي خلفه انفجارك على الجميع، ويلومونك عليه، ويزيدونك ألماً وموتاً ودماراً، ويشيحون بأبصرهم عن جراحك وقطعك المتناثرة)

في دمشق الأسيرة ولدت طموحاتي وأحلامي، كنت أجلس بين الفتيات من بنات جيلي، وأسمع أحاديثهن وأفكارهن، رغم انتمائي لبيئة محدودة الطموح قياساً على الجو العام، ولم أكن أجد نفسي بينهن، فأحلامي كانت تتجاوز الخطوط الممكنة في ذلك الوقت، منهن من تحلم بأن تصبح مدرسة، وأنا كنت أحلم بنشر العلم ووضع بصمتي في مجالات أحبها، ومنهن من كانت تحلم بركوب سيارة، وأنا كنت أسافر بخيالي إلى أوربا وأرسم حياتي هناك.

عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، وأتذكر ما تخليت عنه من أحلام، أشعر بالشفقة والسخرية على تلك الفتاة التي باعت حلمها من أجل حب غير متكامل.

عام ٢٠١١ بدأت الثورة السورية على الظلم، وخرجنا نطالب بالحرية وكسر الخوف، لم أكن في ذلك الوقت أملك وعياً سياسياً بما يكفي ليجعلني أتخذ موقفاً واضحاً منذ البداية، فنحن نعيش في واقع بسيط بعيد عن الطموح، ومغيب عن حرية التعبير.

اجتياح الدبابات لدرعا كان لحظة تحول كبيرة في طريقة تفكيري، وسألت نفسي: كيف لنا أن نعيش كل هذه السنوات في ظل نظام يقرر أن يحارب شعبه مع أول حادثة! كيف لشعب عاش في ظلم مطبق، ومرت عليه مرحلة الثمانينات والمجازر التي حدثت خلالها، وظل في صمته يخاف من خيال صورة الطاغية في صفوف المدرسة الابتدائية، ومن ثم يكسر كل القيود وينفض عنه الخوف إلى غير رجعة!

بدأت بسلسلة من الأسئلة لمخاطبة ذاتي، فحسب ما رأيت من خلال الأخبار وسمعت من أشخاص كان لي شرف لقائهم ممن يملكون الفكر والمنطق، لم يكن الجميع مثلي يحترم بشار، ولم يكن الجميع مغيباً مثلي عن الواقع، فطوال حياتي وأنا أعيش بين أوراقي وكتبي، وضمن عائلة من الطراز القديم المنغلق على نفسه، كيف لي أن أصبح في الثلاثينات من عمري، وقد اعتدت الظلم والسكوت، ولم أفرق بين الديمقراطية والديكتاتورية!

أسئلة شائكة جعلتني أصحو مخدرة من واقع اخترته بنفسي للأسف، عندما بدأت رقعة المشاكل تكبر، وتكبر معها شحنة العمل والضغط والخوف، كبر في نفسي حب الحرية، مظاهرات في كل مكان، وهتافات تعلو "حرية، حرية"، الأناشيد الحماسية الرائعة، بدأت أتفاعل معها وكأن النصر غداً، كما قال سميح شقير في الأغنية المشهورة "سمعت هالشباب يما الحرية عالباب يما.. طلعوا يهتفولا..".

لم أعد أريد أن أغرق في استفسارات تعيقني، لذلك شمرت عن ساعدي وبدأت العمل، وانخرطت في المجال الثوري والإغاثي.

كنت في ذلك الوقت مصابة بكسر في قدمي، ومع ذلك كنت أنزل يومياً على درجات بيتي المكسرة، وأمشي حتى أصل بيت الجيران الجدد الهاربين من أحداث حمص، لأعرف ما يجري وأقدم العون، خلال هذه الفترة تعرفت إلى شبان وشابات مخلصين يؤثرون بك بحماسهم وصدقهم وإيمانهم بما يفعلون، وأسست معهم أول عمل جماعي رائع لتقديم المساعدات ودعم المشاريع في دمشق وريفها.

لم يكن مسموحاً أن أتكلم عن حماسي وعملي، فالموضوع بغاية السرية، ونحن في قلب دمشق وعلينا الكتمان حتى عن أقرب الناس، فخطر الاعتقال يطال الجميع، وكلمة من فم جاهل تنسف كل العمل، ورغم أني كنت أعيش في بيت العائلة التي تتألف من أكثر من ٢٧ فرداً، لا يفرق بين غرفتي وصوت أطفال أخ زوجي وصراخهم إلا حائط، كنت أعمل في الخفاء إلى حد ما، لم يعلم أحد بحقيقة عملي إلا حين اضطررت للكلام بعد سنتين.

في هذه الأثناء كنت أعيش الحماس وحدي، والضغط والإحساس بالمسؤولية كان يكبر في داخلي، أسمع الأخبار

وأتابع الأحداث وأتواصل مع النشطاء، وكأنني كنت ضليعة بالأمر من قبل.
خلقت حرباً مع ذاتي وحرباً مع الآخرين، إذ لم يكن أحد راضياً عن تصرفاتي، بعضهم خوفاً علي، وبعضهم بسبب اختلافهم معي في الرأي، لم أكن أهتم لما يقولون، فهذه ليست المرة الأولى التي أحارب فيها بهذا الشكل.
عندما أفكر ببعض المواقف أجد نفسي دائماً في موقع الدفاع عن رأيي، كما في إحدى السنوات عندما وصل بنا الوضع المادي حد الحاجة، فقررت أن أساعد زوجي وأعمل في مجال التدريس، فوقف الجميع في وجهي، وكأني ذكرت أمراً محرماً، وبقيت بعدها سنوات حتى استطعت أن أقنعهم وأبدأ بالعمل ولو بشكل جزئي.
ولممارسة حقي في إكمال دراستي كان لا بد لي أن أجاهد لأبدأ، لذلك أكملت ما بدأت به، وانخرطت مع الثوريين الشرفاء على الأرض، أعيش الحماس وحدي وأفكر بالنصر وحدي، وأنتفض كالمجنونة عندما يتكلم أحدهم عن الثوار وكأنهم أبنائي، فابتعد الجميع عني، وبتعبير أصح، التزمت مكاناً قصياً.
في بيتي الدمشقي، في غرفتي الصغيرة وتلك الزاوية مع الحاسوب والكابلات الممتدة المختلطة، وأوراقي المبعثرة، تلك الغرفة التي لم أكن أستطيع فتح نافذتها خوفاً من أن يراني أحد الجيران، وهذا ما كان يخنقني يومياً، لذلك فتحت نافذتي الخاصة، وأغرقت نفسي في الدراسة والكتب سنوات طويلة، وبسبب الثورة خلقت نافذة أخرى من التواصل مع النشطاء على مواقع التواصل الاجتماعي، وكانت هذه المرحلة هي التي أيقظت فيّ شيئاً كنت أجبره على السبات.
لم أستطع إيقاف المد القادم من الذاكرة، فتحت جميع قنواتي وجهزت جميع حواسي، ونسفت جميع الجدران حولي، عملت وقتها ليل نهار، أحضر مع أصدقائي من الناشطين للمظاهرات، نطبع الأعلام الثورية، نعلق الأعلام ليلاً في مناطق قريبة من مراكز الدولة، نخاطب المرابطين على الجبهات.
في تلك الغرفة الصغيرة، شكلت مع نفسي غرفة عمليات للتغيير، ورغم وجودي بين الناس والأقرباء كنت شاردة الذهن مفطورة الفؤاد مما يحصل في الخارج، أمسك هاتفي متأهبة، أتحدث طوال الوقت وأهب لمساعدة أي شخص، جازفت بنفسي مرات، ولم أعد أستطيع الموازنة بين عائلتي والثورة.
كنت أرى أن من المشين أن أعيش وغيري يقتل بالرصاص أو يعتقل لمجرد التعبير عن الرأي.
حاول زوجي أن يثنيني عن العمل، خوفاً عليّ تارة وخوفاً على نفسه وأولادنا تارة أخرى، ذلك الشاب الذي قمت باختياره ضد إرادة أهلي، وتركت أحلامي من أجله، ورضيت بواقع لا يناسبني من غير سؤال، أصبح يضيّق علي حركتي وعملي، يمنعني من الخروج أحياناً، ويراقبني بشدة أحياناً أخرى، بتنا على خلاف ما لبث أن اشتدت حدته مع مرور الوقت.
رغم أنني كنت لا أناقشه في الماضي بأمر يريده، وأقول في نفسي "أنا أحبه، حاربت من أجله، وتحملت حتى الآن جميع الظروف لأجله"، ومع ذلك لم يستطع أن يثنيني عن عملي، لم أعد تلك العاشقة المتيمة التي أحبته، ولم أعد تلك المستكينة للظروف، ولم أعد أرضى السكوت، لا أعرف من أين جاءتني هذه الجرأة كي أقول له يوماً: "لا".
صار يخاطبني بحدة، يقول لي في بعض الأحيان بنفس هجومي: "ليس لنا علاقة".
كنت أرد باستغراب وانفعال: " كيف ذلك ونحن نعيش في نفس البلد، وجارك يتألم، كيف ليس لك علاقة وطفلة في حمص ذبحت وهي تقول لقاتلها أرجوك عماه لا تقتلني، وهو يذبحها أمام إخوتها، كيف لا تكون لك علاقة عندما تغتصب فتاة في جامع من قبل عناصر الأمن، ومكبرات الصوت مفتوحة ليسمع الجميع صوت استغاثتها، أليست لك ابنة تخاف عليها، أو بيت تخاف أن تفقده أو وطن يباع بدم بارد؟". ظل يبرر وينكر.
تلك الشرنقة التي نسجتها حولي خلال خمسة عشر عاماً بدأت بالتصدع، لم تعد تستوعب جسدي الذي تعب من التكور على نفسه.
من خلال نافذتي الجديدة في زاوية غرفتي المعتمة، وأنا أراقب العالم، أسبر أغواراً جديدة وأتطلع إلى آفاق بعيدة، ومض ذلك الحلم من جديد، ذلك الذي دفنته منذ زمن، أفزعني ما شعرت به، فقد لامست أصابعي حروفه وانتفض ليعود للحياة.
مواقف كثيرة كنت أتجنبها وأبررها لنفسي، أغض الطرف عن أخطائهم رغم أنهم لم يتوانوا عن محاسبتي على أخطائي.
تجاوزت مراحل التضحية مع الجميع، وكنت أؤجل ما أريد من أجل ما يريدون، ولا أقصد ذلك كأم فقط، فعلى الأم أن تضحي، بل كزوجة، وصديقة وإنسانة.
كيف لي أن أحرم نفسي من تحقيق حلمي والخروج من قوقعتي، كيف للنجاح أن يكون محرماً علي، ومئات النساء يناضلن في الخارج؟

حتى جاءت مجزرة كرم الزيتون في حمص ودُمرنا جميعاً، وخسرت الإنسانية إنسانيتها في عيون الأطفال المذبوحين في أحضان ذويهم، وتهاوى كل شيء.

جاء زوجي ليلتها يريد نفسه وكأن شيئاً لم يكن، رفعت عيني الباكيتين في وجهه مذهولة، وكأن شرخاً كبيراً قد أحدثه هذا الزلزال وحال بيني وبينه إلى الأبد، عندها فقط قررت أن أكمل طريقي وحدي، وأخرج مما أنا فيه.

توالت أحداث الثورة، اعتقل من فريقنا الكثيرون، واستشهد أمامنا خيرة الشباب ولم يثنِنا ذلك عن العمل، قابلت أشخاصاً سأقف احتراماً لمواقفهم كلما تذكرتهم، معتقلات تدمي تجربتهن المريرة القلب، أمهات ثكالى صابرات، أطفال نبحث لهم عن علاج مفقود، ونرجو رحمة من الله.

فيما مضى، كنت أريد بيتاً يجمعني مع أطفالي بدل هذه الغرفة الكئيبة، عالماً أعيش فيه بسعادة وحدي، بغض النظر عن أنني لم أمتلك هذه المملكة يوماً، ولم أستطع الوصول لهذا المطلب البسيط، لكنني الآن أبحث عن مملكة جديدة، مملكة أعبر بها عن كل ما يجتاحني من مشاعر، كرامة وحرية، وبوحاً بما يجول في عقلي، أبحث الآن عن وطني بيتي وعشقي الحقيقي الذي سلبونا إياه، لم يعد الأمر بيتاً وحبيباً وطفلاً أنجبه بعد علاقة روتينية، أصبح الأمر أكبر مني ومنك ومن الجميع، تخطى كل الحدود، لم يعد يعنيني وحدي فقد سقطت الأنا من قاموسي.

بيتنا، حارتنا، شبابنا، أطفالنا ومعتقلونا.. لم أعد أستطع الانفصال عن مطالب الجميع، فإن لم أجد وطني، لن أجد بيتي ومملكتي التي أريد.

شاءت الأقدار أن أخرج هاربة من شبح الاعتقال، كان لا بد أن أختار بين دخول المناطق المحاصرة، أو الخروج من سوريا، فكان الخيار الأصعب، وتسببت بصدمة قوية لأهلي الذين لم يكونوا يعلمون بما كنت أعمل طيلة هذه السنوات، وتسببت كذلك بخوف من حولي وخاصة أطفالي.

اضطررت أن أودعهم رغماً عني، فأطفالي ورغم كل شيء هم من وقف معي وساندني، ودافع معي عن قراري، تحملوا خروجي في النهار للعمل، والسهر ليلاً على التقارير والتخطيط لليوم التالي، تحملوا بكائي وانهياري عندما كانت تمر الأحداث، وجودهم كان دعامتي الوحيدة.

طفلي ذي الخمسة أعوام، صاحب اليدين الصغيرتين الحانيتين كان يضع يديه على خديّ عندما أعود متعبة من يوم مضن تحت أشعة الشمس، وأرتمي على تلك الأريكة الضيقة، ويقول لي بصوته الضعيف الناعم: "ماما بردانة غطيكي؟ أنت تعبانة؟". فأبتسم رغم الألم وأقول له: "حبيبي لا تقلق، أشعر بالراحة الآن لأنك معي".

لم أستطع أن أودعه فقد كان نائماً، رحت أقبله على فراشه من يديه ورجليه وخديه، وأشمه كي أحتفظ برائحته معي، وداع أولادي كان أصعب شيء واجهته في تلك الفترة، لكن قراري واختياري إكمال مشواري وتحقيق أهدافي، والمضي قدماً حتى النصر كان أمراً مفروغاً منه.

ابني محمد حضنته ووعدته أنه سيشعر بالفخر يوماً ما بما أفعله، كما أتمنى أن أفتخر به في المستقبل.

أدرت ظهري ونظرت في عيني طفلتي لدقائق، وكأني أمرر لها المسؤولية، أوصيتها بأخوتها وأخبرتها أنني سأعود.

خرجت من تلك الغرفة، تركت شرنقتي المهترئة، ونفضت عني غبار السجن، وقد كذبت كذبتي الأولى.

لم أعد بعدها إلى ذلك البيت، لم أعد تلك المرأة التي تتآكل من الداخل خوفاً على مشاعر الآخرين، رغم الخسائر التي علمت في قرارة نفسي مداها، لكنني خرجت، فهناك واجب يجب أن أكمله، ومستقبل يجب أن أكمل رسمه، وقد قررت أن ألاحقه بقوة بعد تلك السنين.

لم أكن أعلم حينها أن طريق النجاح مليء بالصعاب، وستتربص بي كل أفعى وكل ذئب جائع، لم أكن أعلم وقتها أنني سأحارب بكل ما للكلمة من معنى، وأن لدموع الانكسار والمرارة طعم غريب مع رائحة احتراق الفؤاد.

رغم ذلك، خرجت من ضباب الخوف إلى أمل اللقاء بعشقي الأول (حلمي الضائع).

شهناز.. رحلة الموت على طريق الأمل

قصة بانة سعيد

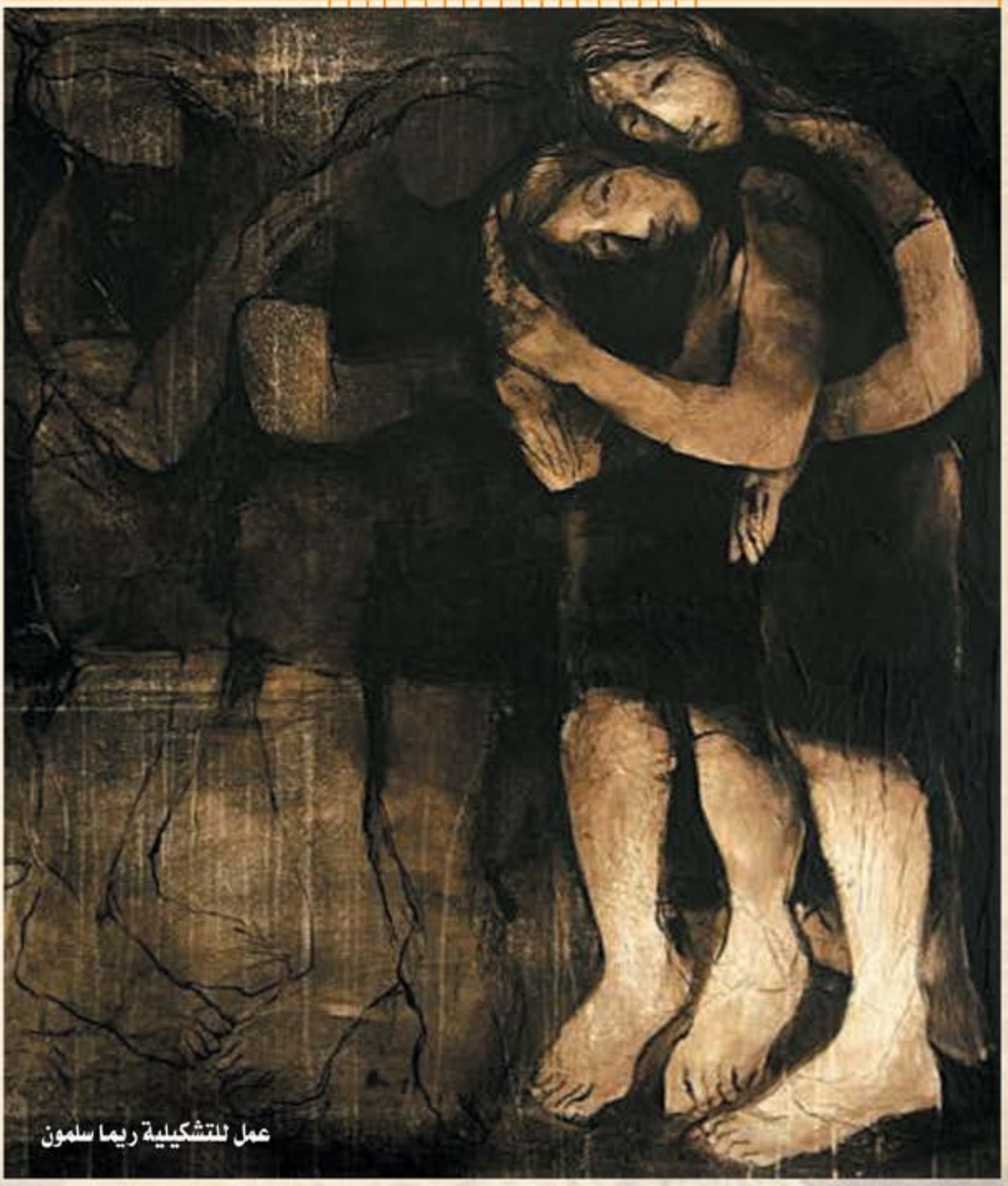

عمل للتشكيلية ريما سلمون

روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني

لن أتحدث عنها وكأنها أسطورة، لكنها الأم، الصديقة، والحب غير المشروط للجميع.

لديها أطفال لم تختر أن يكونوا لها يوماً، إلا أن مشيئة الله منحتها هذه الهدية، فتقبلها بكل جوارحها. في رحلة الموت للعبور إلى أمل ينجيها، اختار لها القدر صديقة، لتكملها معها وتعيش أحداثها، وهي "بيان".

كانت الأحداث تتسارع في الأماكن التي يسيطر عليها الثوار، والوضع المميت يزرع الرغبة في الحياة كل لحظة، في نفوس القاطنين هناك، في تلك المناطق، كان الألم يعتصر القلوب، شهيد تلو الآخر، دمار تلو الآخر، هذا شرح ما يحدث عندما ترى طفلاً ممدداً بالقرب من الركام، قبل أن تقترب منه وهو مضرج بدمائه، أول ما يخطر ببالك هو: متى سيأتي دور طفلي؟

في سوريا، أنت لا تفعل شيئاً سوى أنك تنتظر الموت لمن تحب، أو ربما لنفسك.

في كل لحظة تهرع الأم السورية من نومها لتتفقد أطفالها، لأنها تدرك تماماً احتملات أن تكون المرة الأخيرة التي تراهم فيها على قيد الحياة، فذاكرة الأمهات، باتت مرتبطة برؤية أشلاء الأطفال على الجدران، الأطفال الذين يختفون تحت الركام الناتج عن صواريخ طائرات بشار الأسد.

جلست الصديقتان في السرير، كان الحديث عما إذا كنا سنعبر الحدود السورية التركية.

كنت تستطيع أن تسمع ضحكات الصديقتين من خارج الغرفة، وكان الضوء الخافت يمنحهما شعوراً غير محدد.

بالنسبة لبيان كان الخروج وقتاً مستقطعاً، لأنها كانت تشعر بالعجز والضياع، وهي ترغب في العودة حتى قبل الخروج من هناك، فتعلقها بإخوتها الصغار يجعلها مصممة على الخروج، وأكثر تصميماً على العودة.

اتفقتا ألا تدعا أي شيء يعكر صفوهما، "سنستمتع بالرحلة وإن كانت صعبة"، لم تدركا أبداً في تلك اللحظات ما كان يخبئ لهما القدر.

في صباح مليء برائحة الموت، وأصوات صواريخ الطائرات، التي اعتادتها مسامع الناس في المناطق المحررة، أشرقت شمس جديدة، ركبت الصديقتان السيارة، كانت شهناز تنظر إلى الأبنية التي دمرتها البراميل بحرقة، وكأن الأبنية تتحدث عما يحصل معها، وتروي قصة وطن تائه وثائر على واقعه، كشهناز تماماً.

كانت شهناز تفكر بأبناء أختها التي توفيت نتيجة خبر صدمها، وهو أن زوجها الضابط قتل على يد ميليشيات الأسد لأنه رفض أن يقتل أسيراً، لكن الخبر كان غير صحيح، هذا ما اكتشفه أهل شهناز مع مرور الوقت.

شهناز كانت تحبهم بشدة، فهي تربيهم منذ وفاة أمهم وتقلق عليهم، هم بدورهم كانوا متعلقين بها بشدة، كانت ملاذهم الأمن.

عند انتهاء الطريق، وبلوغ مدينة اعزاز، كانت الصديقتان تتبادلان ابتسامات، تخفيان تحتها الخوف من المجول.

باتصال هاتفي ارتسمت الصدمة على وجه بيان، فمن سيوصلها إلى بر الأمان أخبرها أنهما لن تستطيعا العبور، فالحدود مغلقة.

كانت شهناز تدرك بأن هناك خطباً ما، رأت ذلك على وجه بيان، سألتها: لن نستطيع الدخول، أليس كذلك؟

شهناز تحدت الموت في الداخل، فهي تمتلك العزيمة.

- أعطني الهاتف، ألا توجد طريقة أخرى للخروج؟

- بلى، لكنها غير شرعية، ويجب أن تتم من الطرف الشمالي لهذة القرية.

- حسناً، إن حياتي متوقفة على ذلك.

لم تقصد بتلك اللحظات حياتها هي، بل حياة الأطفال الذين ودّعوها بحرقةٍ ثانية

كحرقتهم لوداع أمهم الأولى، نظرت إلى بيان بعنفوان وعزيمة وقالت: "سندخل من عفرين".

أثناء الطريق إلى عفرين، أخبرها السائق أن هنالك شخصاً سيساعدهما ليعبرا الحدود، ويحمل معهما الحقائب حتى منتصف الطريق، لكن عليهما أن يدفعا له مبلغاً كبيراً كانتا قد ادخرتاه لقضاء فترة في تركيا ريثما تجدان عملاً.

طوال الطريق شهناز تردد: "سأدخل حتى إن كلفني ذلك حياتي، لم أعد أملك شيئاً في الداخل السوري، لدي أطفال بحاجة إلي".

كان كلامها يمنح بيان الاطمئنان، بعد عناء الطريق وتفتيش الحواجز، كانت لحظات الألم الأخيرة قد بدأت تقترب.

عبر الجبال في منطقة عفرين، كان النهر يرسل إشارات لبيان لم تفهمها ولم تستطع تحديها، فهي منذ فترة طويلة لم تر الطبيعة، حتى الأشجار كانت شيئاً قد اشتاقت لرؤيته.

بدأت الرحلة مع الشخص الذي سيقوم بتهريبهم عبر الحدود، يردد بصوت خافت: لا تصدرا أي صوت، كونا

هادئتين، لأن الجنود على الطرف التركي سيسمعون أي صوت ويطلقون النار.

كان الرجل يشعر بضربات قلبيهما السريعة ويقول: اهدأا، مشيراً بيده إلى الجندي، "اذهبا إلى هناك، إن منعكما من الدخول فلا تجادلاه، لأن لديه أوامر بإطلاق النار على كل شخص يحاول اجتياز الحدود".

كالعادة قوة شهناز جعلتها تسير أمام صديقتها بخطوات ثابتة على الصخور الصغيرة، اقتربت من الأسلاك الشائكة ووضعت حقائبها عليها، فبدأ الجندي يصرخ: "لا تكملي الطريق، عودي وإلا أطلقت النار عليكِ". لم تعر كلامه أي اهتمام، وضعت حقائبها على الأسلاك تريد الصعود عليها والخروج إلى الطرف الآخر، كان ذلك متزامناً مع وصول الجندي ووقوفه أمامها.

- عودي إلى سوريا، لن أسمح لك بالدخول، لم تفهم ما يقوله لكن تعابير وجهه كانت تخبرها تماماً ما يقصد، وصلت بيان منهكة من حمل حقائبها وسألته:

- تتكلم الإنجليزية؟

- نعم.

- أرجوك، هي بحاجة للدخول، دعها تعبر.

- لست أنا من يقرر ذلك، بل الكومندان.

- اسأله أرجوك.

- حسناً، لكن لا تقتربي، وإلا فإن أصدقائي سيطلقون عليك النار.

- حسناً

ثم عاد مع الكومندان الذي نظر إلى شهيناز بازدراء، وقال بالإنجليزية: لا تتحركي إلى الأمام كي لا أطلق عليك النيران.

- لن أعود، أنت لا تدرك ما نعانيه هناك، إن كنت ستطلق النار فلك ذلك، وفتحت ذراعيها..

قام بشحذ السلاح ووضعه على قدميها، وهو يرد بجدية: سأطلق النار.

- عودي شهناز.. عودي.. أجهشت بالبكاء، لكنها أدركت أن إصرار شهناز سيجعلها مشروع شهيد آخر على الحدود السورية التركية، وكان إدراكها أكبر لحجم اللامبالاة الذي وصلت إليه شهناز.

سحب الكومندان شهناز بقوة إلى جهته، فعلقت قدماها على الأسلاك، وبدأت قطرات الدماء تظهر على كل ملابسها، لكن الأسلاك لم تكن أكثر إيلاماً ووجعاً من واقعها بعد أن ساعدها بقية الجنود لتخليص جسدها من الأسلاك، كان شعور بيان بالراحة يغمرها، فشهناز أصبحت داخل الحدود التركية، إلا أن الكومندان أمر الجنود بقطع الأسلاك وإعادة الصديقة إلى سوريا.

بعد قطع عدة أمتار التفتت شهناز إلى الكومندان وقالت: أنت لا تملك ضميراً، لم تكن هي من تتكلم بل خوفها على أبناء أختها هو الذي تكلم، لأن الكومندان لم يكن يدرك ما تمر به، فهو ينفذ ما يؤمر به فقط.

على الصخور القاسية عادت الصديقتان، كانت الشمس على وشك المغيب وكانت الحقائب قد أرهقتهما.

من حسن حظ الفتاتين أن الرجل كان في منتصف الطريق بانتظار عودتهما، فقد كان يراقب ما يحدث من خلال الأشجار.

شاء القدر مرة أخرى أن تبديل الجنود سيكون بعد نصف ساعة، هذا ما أخبرهما به الرجل أثناء الجلوس، كان المطر قد بدأ يهطل بقطراته على وجهيهما المتعبين، كأن القطرات كانت تخبرهم بما سيحدث لاحقاً، الانهيار كان واضحاً على بيان من خلال نظراتها وهي تراقب الهطول، حان موعد المحاولة الثانية، حملت شهناز الحقائب دون أن تتفوه بكلمة، كانت الحقائب مملوءة بالمياه، وكان وزنها متعباً لجسد الفتاتين.

مجدداً وضعت حقائبها لتقطع الأسلاك، وحاولت العبور، أما بيان فمن بعيد كانت تراقب صديقتها بخوف.

كما فعل الجندي السابق، بدأ بالصراخ عودي، عودي، دقات قلب بيان كادت تختفي لأنها توقعت ما سيحل بصديقتها، أما شهناز فجاوبته بعنفوان امرأة سورية: لن أعود، هذا هو قدري.

اقترب الجندي بهدوء رحيم، قال لها بنبرة حزينة: ارجعي إلى وطنك..

كانت النظرات بين عينيها وعينيه تثبت أن هذا الجندي إنسان بحق، سألته بعد أن اغرورقت عيناها بالدموع: هل أنت إنسان؟ هو لم يفهم ما تقوله، لكن عينيها كانتا تخبرانه الكثير عن معاناتها.

اقترب إليها ووضع يده على كتفها وسحبها إلى الطرف التركي، وصاح ببيان تعالي إلي، ثم سحبها هي الأخرى.

كان الليل قد عم أرجاء المدينة، وللهدوء هناك قصة أخرى، كانت الصدمة.

روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي

أنه لم يسمح لهما بالدخول إلى تركيا، بل طلب منهما الذهاب معه إلى المكان الذي يحرس فيه، سحب الحقائب بلطف وسار أمامهما.

عند بيان توقف الزمن واختلفت ماهيّة الأشياء، أصبحت الأشجار أصغر وصوت الخفافيش كأنه صوت وحوش تنهشها.

ففي تلك اللحظات صرخت بيان: لن أذهب معك، هل تفهم.. لن أذهب وبدأ الدم يتدفق في عروقها أسرع.

شهناز بطبيعتها أم للجميع كما قلت سابقاً، وقفت أمام صديقتها، أرادت بذلك أن تحميها منه، ونظرت إليه وقالت،عد إلى هنا لن نذهب معك، أعطنا الحقائب.

ترك الحقائب وعاد إليها ووضع وجهه أمام وجهها، ثم قال: لا تقلقي أنت بمأمن معي، كان كلامه يذهل شهناز، لكنها أدركت أن ما يقوله صحيح لسبب لا يعلمه أحد.

ربما كان الجندي لطيفاً لما رآه من تعب على وجه بيان، وجروح ودماء ووقار على وجه شهناز.

أشعل لها النيران لحظة وصولهما، وخلع سترته ليعطيها لبيان، لكنها رفضت وقالت له: سيعاقبك الكومندان، فابتسم وقال لها: أنا الكومندان.

كانت لديه تفاحة، أخرجها من جيبه قسمها، وأعطاها للفتاتان لتأكلا، تركهما وسار بعيداً.. إلى مكان لا تعلمانه.

عاد بعد فترةٍ وجيزة بخطوات ثابتة، بعد أن مزق الانتظار الصديقتين، كان صوت حذائه العسكري الذي ينغمس في الوحل والطين متواتراً مع أنفاس بيان، التي أصبحت صعبة ومسموعة بصوت عال.

وصل إليهما ثم قال: هيا ستدخلان تركيا، لكن الصديقتين لم تصدقا ما كان يقول، وعلامات الفرح تظهر على الوجوه المتعبة.

الرغبة في الحياة عادت إلى شهناز، حل الحقائب وسار بهما إلى طريق مجهول، حتى سمعتا صوت شخص آخر يتكلم العربية، فبدأ الأمان يتسلل إلى داخلهما، وعند وصولهم إليه، قال لهما الرجل: أنا سوري وهذا الجندي سيدخلكما إلى تركيا، فقط انتظرا قليلاً.

وضعت الفتاتان الحقائب وجلستا عليها، فاقترب الكومندان عند قدميها وجلس على مستوى وجههما، ثم أنزل قبعته للفتاتين.. بأمان الله!

سارت الفتاتان مع المترجم، الذي كان لطيفاً جداً، ساعدهما على حمل الحقائب داخل كروم الزيتون إلى أن اصبحت الأنوار في الطريق واضحة، على قارعة الطريق تمنى لهما حظاً موفقاً وغادر.

جلست الصديقتان بانتظار سيارة طلبها لهما المترجم، عند قدومها وضعت بيان قدميها داخلها، فسمعت صوت طائرة وصرخت: شهناز! ابتسمت شهناز وقالت: نحن في تركيا، لا توجد سوى طائرات مدنية تحلق في الأجواء.

خلال مرور السيارة في الشوارع التركية كان أكثر ما لفت انتباه بيان هي إشارات المرور، فهي منذ أربع سنين لم تر إشارة مرور.

وضعت رأسها على كتف صديقتها، وبدأت تختفي عندها ملامح الأشياء والصور، أغمضت عينيها ببطء، ثم غفت..

هِيَ لِي

قصة نوركيالي

عمل للتشكيلية جزلة الحسيني

أتخيل شيئاً سحرياً.. خاتماً أو ربما عصاً تعيد كل هذا الوقت الأرعن إلى سابق ضحكتي وضحكتهما..

وفي لحظات هذيان.. أصرخ :

لا لن أعيده.. سأحيي أحد الأموات ليجيب عن أسئلة تشغلني:

أخبرني عن الموت.. صفه لي.. أهو أسمر أم أشقر، ربما كان زنجياً.. أو شفيفاً..

أي عطر يغربه.. عرق مخثر.. بارود معتق.. أم خليط دم وركام؟

أيعتنق ديناً؟ أهو مسلم.. مسيحي.. بوذيا.. أم ملحد؟

أهو طويل القامة كلحظات الظلم والظلمة.. أم قصير كوميض الفرح..؟

هل يعرف بأنني كنت يوماً صامتة.. متمردة.. معهم .. ضدهم، أم مهمشة كخيال مآتة؟

أخبرني أي جسد هو وجبة الدود المفضلة؟ الجسد المزركش بالرصاص؟ المحروق أم المقطع؟

ليست هذه الأسئلة ضرباً من الجنون..

أريد أن أرتب موتي كما أشتهي.. أن ألحق بهما وأنا في أبهى حلة كما عودتهما ..

رحيل يجب أن يكون كما يليق بحزني..

أيقنتُ بأني سأدفن دون قلب، فقلبي الذي أخذاه معهما قطعة قطعة.. وهذه السنابل اليانعة في حقولنا.. يقضمها موتٌ.. يلوكها.. يبتلعها.. ليسكت نهم نيرانه.. ناره لن تشبع يوماً.. حتى أفلت مواسم الحصاد، أفكر في لحظة موتي.. من سيهديني قطعة من قلبه؟ فقد كانا نبضي وقلبي.. وتفاح الروح الذي أعشق .

أنا "أم" لم تميز، لم تفرق ساعة في حبها.. خوفها.. غضبها.. ولا حتى في تحيبها بين ولديها..

منذ ذلك اليوم والحياة لم تعد تعانق لوني.. كل لونٍ يقتل اللون الذي لا يشبهه.. لا ينتمي إليه.. يغير لون السهل والجبل والحجارة.. حتى البشر..

يطمس كل الملامح.. فلا يميز لون السماء عن لون التراب.. ولا لون الدخان عن لون الشمس..

صِراعٌ يسكن في الروح.. يشظيها ويعيد ترتيبها صباحاً.. ليبددها عند المغيب بقهر جديد..

لن أنسى ذلك اليوم.. لم يتصل أي منهما، ولم أشرب قهوتي ككل صباح ..

تناولت حقيبة الصور بعد نهوضي من سريري، أتفحص حياتي التي بدأت بهما، كانا أقرب إلى أن يكونا توأمين ..

لحظة ولادتهما، أول يوم في المدرسة، شجارهما، ونومهما في السرير ذاته.. لعب الكرة وتحطيم الأثاث، مرضهما، عصافيرهما.. وقطط الحي التي أجدها تقفز في وجهي من داخل الخزانة، محاولة كسب ذرات حب إضافية في الطاعة والعناق، هبل المراهقين.

توتر الدراسة ودمعة النجاح والجامعة.

نعم سأخطب لهما شقيقتين، سيكون زفافهما في يوم واحد، وسأكون جدة حنوناً، أريد أحفاداً.. عدداً كبيراً من الأحفاد..

سأحيهم جميعاً.. هنا انقبضت روحي.. يبدو أن هذه الأمنية حضرت متأخرة جداً ..

"العمر إلك ياخالة.. ارفعي راسك أنت أم الشهيد وراح ناخد بالتار"

"يا أمي.. الله يرحمو.. نحن أولادك.. كلنا أولادك.. "

في نفس التاريخ فقدتهما.. انطفأ ربيعهما وجف دمعي. رحل الأول بحقد متنكر في شكل برميل جهنم، والثاني.. بثأر محشوٍ داخل مدفع جهنم.

في مدينة قسمتها الحرب ضفتين يعبرها نهر دم وعويل.. مدينة انتصبت فيها خايم العزاء، ولم تزل..

بموتهما كان موتي..

أمهات ثكالى يشيعني، أمواتٌ فوق الأرض، لم يسألنا عابر سبيل كيف نعيش موتنا، كيف نتنفس العاصفة، ولا كيف صارت أكفانهم بلون حليب رضعوه قوتنا..

منذ ذلك اليوم، كل الجنازات التي تمر بي، أقبل جثامينها، وألوح لها..

"هي لي.."

تراب مخضب بالدم

قصة راميا مستو

عمل للتشكيلية لبنى أرسلان

روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي روح نسائي

كلما اقتنيت قطعة جديدة من الذهب، أمضي بصمت في دهاليز الذاكرة، حيث تقطن حقيبتي الصغيرة، تمتد أصابعي بهدوء إلى عتمتها لتلامس جوربه المغطى بالتراب والدم. جوربه الذي بقي معي ولم يرحل معه، قالها محمود درويش يوماً: "أشياؤنا تموت مثلنا، لكنها لا تدفن معنا". عذراً درويش، لا مكان للموت هنا، فمازال دمه يتفجر في عروق (خيوط) جواربه المخضبة بالتراب، حيث ترقد هناك حُليّ من الذهب، حُليّ لم أعد أرغب التزين بها مذ رحل.

أحب علاقتي مع الاشياء الصغيرة، أخبئ فيها مفردات ذاكرتي لأعود إليها كلما لبسني الحنين لأحد التفاصيل.

جوراب مصطفى، ومزيج من التراب والدم وقطع الذهب العتيق في حقيبتي الصغيرة.. حيث الجميع صامت إلا الحنين والحب.

لكل منا محطات مفصلية في مسيرة العمر.. نقف عند إحداها بضعاً من الدقائق لنواصل المسير تارة، وتارة أخرى لنعود إلى الوراء حيث كنا. يحدث أحياناً أن يعترضنا إعصار من التفاصيل، بعضنا يمضي سنوات العمر وهو يبدل تلك المحطات في قطار واحد، نحو اتجاه واحد، ونهاية غالباً ما تكون واحدة، كما يشاء له السائق أن يمضي، دونما إلقاء نظرة إلى ما خلف النوافذ حتى.

البعض الآخر سيصل إلى الهدف ذاته وفي الوقت ذاته، وهو يستمتع بتفاصيل النوافذ الممتدة على طول الطريق.

لكن هل حدث أن كان أحدكم في محطة ما، وقرر مواصلة الطريق في قطار آخر، ونحو مجهول آخر، بينما الجميع يسيرون في اتجاه واحد، فقط لأنه اتبع نداء قلبه؟

هل حدث أن اتبع أحدكم نداء قلبه، هل حدث أن كان نداء القلب هذا مخالفاً لصفارة القطار؟

جميل هو حب الوطن

جميلة هي العودة اليه

أيام شهر نيسان من عام ٢٠١١ ليست كباقي الأيام، فها أنا أعانق الوطن من جديد، بعد أن أنهيت دراستي الجامعية في مدينة أصفهان الإيرانية. كنت محملة بكثير من العطاء لوطني الجميل، ولأسرتي الدافئة، وها هو الحلم قد أصبح حقيقة مرئية، ها هي عائلتي الصغيرة مجتمعة، نجهز العيادة الطبية في قريتي (معرستة الخان)، أبي يعلق شهادة التخرج على الحائط، أمي ترتب الطاولة، أختي الصغيرة تنبهني للمرة الألف أن التزم بعدم الفوضى، إخوتي يعلقون اللوحة الضوئية، وها هو اسمي يرافق اسم والدي في وسط اللوحة، والدي الذي كان رفيق غربتي ولم يفارقني يوماً إلا عندما اختطفه الموت ومات قهراً، بعيداً عن الوطن.

كان الجميع منشغلاً بي، وكانت عيادتي هي الحدث الأهم في القرية الصغيرة التي لم تشهد حتى ذلك الحين وجود مركز طبي، أو حتى صيدلية إسعافية، فإذا بتلك الطفلة الصغيرة تعود وتحمل لقريتها الكثير من الأمل.

حتى أن عجوزاً في القرية زارتني ماشية على عكازها، لترى بأم عينها الطبيبة والعيادة، وكما فعل كل أهالي "الضيعة"، سألتني أن أقيس لها "الضغط" ففعلت، أرادت أن تشكرني فقدمت لي ثلاث بيضات "بلديات"، كان هذا ما تملك، يومها رفضت بشدة أن أخذ منها البيضات الثلاث.

لا أدري اليوم ماذا الذي حل بها، كم أود لو أني قبلت هديتها، أفكر أن طعم تلك البيضات البلديات لا بد كان شهي المذاق، لكن لا العيادة، لا العجوز ولا البيضات الثلاث ستعود يوماً، كما العمر الذي مضى لا يعود.

كان لقائي للوطن بعد تسع سنوات من الغياب غريباً ومفاجئاً، وضعني في مواجهة حقيقية مع الحياة داخل غرفة تمتد أربعة أمتار طولاً، وثلاثة عرضاً، تتوسطها طاولة، وفي زاويتها سرير وبعض من الأدوية الإسعافية، وكثير من القصص.

تزامنت عودتي إلى سوريا مع اضطرابات كنت قد سمعت عنها من بعض الأصدقاء في أيامي الأخيرة في إيران، تعددت الأسماء بين حركات عصيان وتمرد في درعا وبعض مناطق حمص، كانت حلب حينها الأكثر انعزالاً عن تلك الاضطرابات، حتى أني لم ألحظ أي شيء غريب عندما وصلت إلى سوريا، على عكس ما كنت أتوقع، ما عدا بعض التشديد الأمني في المطار وقلة حركة السير في الليل.

توالت الأيام مع حدوث بعض التغيرات في أفكار الناس، كثير من الخوف، كثير من حالات الخطف، فوضى، ومظاهرات امتدت في معظم مناطق سوريا، لكنها لم تصل حلب.

كنت في تلك الفترة التحقت بمشفى التوليد في حلب، وتابعت عملي في عيادتي، متأقلمة مع الجو العام، حتى أني بدأت أتعود على التغير المفاجئ الذي طرأ في حياتي، فاليوم هنا في قريتي الصغيرة، حيث لا كهرباء إلا لساعتين أو ثلاث، لا شبكة إنترنت، ولا مواصلات، أجواء عائلية حميمة لدرجة متعبة، وضغط عمل وتحمل للمسؤولية.

كان اليوم بالنسبة لي ١٤٤٠ دقيقة، وأصبح هنا مجموعة من فوضى الساعات التي لا أدري أين كانت تذهب، ولكن لا بد من التأقلم، خاصة في ظل الاضطرابات التي باتت تأكل ركود البلد، والتي بدأت تسمى ثورة في بعض المناطق.

عشت طفولتي وأنا ابنة رجل ماركسي الأفكار، وأم صاحبة مبادئ إسلامية رفيعة، عشت طفولتي أرفض الظلم وأناصر الفقراء، بعض الأحداث لا تزال عالقة في ذاكرتي، كخروج صديق والدي من السجن بعد تسعة أعوام، وأغنية سميح شقير "هي يا سجاني" وعبارة "الحيطان لها آذان"، وكثير من العبارات، دفعتني للتمرد ورفض الانتساب إلى حزب البعث في الصف العاشر، الحزب الذي كان الانتساب إليه إلزامياً بشكل ما.

أذكر أن مديرة المدرسة استدعتني وسألتني: لماذا رفضت الانتساب...؟ أخبرتها أن لعائلتي توجهات سياسية أخرى، فوضعت

تحت اسمي خطاً أحمر، وبنظرة حاقدة أمرتني بالخروج.. لا أعرف من أين قفزت إلى ذهني تلك الإجابة، ولكني أذكر أن أبي استاء يومها من هذا الأمر، وأبدى بعض التخوف الذي ما لبث أن زال مع الوقت.

في صيف العام نفسه كنت في معسكر الصف العاشر الانتاجي\ الإجباري، وكان لزاماً أيضاً نزع الحجاب، وحدث أن توفي حافظ الأسد قبل بدء المعسكر بيومين، ورافقت وفاته بعض الاضطرابات، زامنها ارتداء بعض "المتحبكجيات" شالاً أسود، وكان هذا الحدث عطاء ربانياً لي، إذ ارتديت معهن الشال الأسود، وكلي سعادة أن القدر تدخل ولم أنزع الحجاب، يا لبساطة الأطفال، موت ديكتاتور كحافظ الأسد، وما تلاه من أحداث سياسية لم يعنِ بالنسبة لي، سوى أني لن أنزع الحجاب، وسأرتدي شالاً أسود.

لا أذكر الكثير عن تفاصيل موته سوى أن الصمت خيم في بيتنا، فللموت رهبة تمنع البعض من الفرح، حتى ولو كان الميت ألد الأعداء، وحدث أن انتقل الحكم بطريقة لم يتقبلها عقلي في ذلك الزمن وأعجب اليوم كيف تقبلتها عقول السياسيين يومها؟ وكيف أن الشعب لم يعلنها ثورة؟ وهل انتقال الحكم الجمهوري في سلالة العائلة الواحدة وتغير الدستور في ظرف ساعات قليلة، أقل من حرق البوعزيزي نفسه لتشتعل شرارة الثورة؟!

توالت الأيام في ظل حكم الأسد الابن، انشغلت بالتهام الكتب، ولم أتمكن من دراسة الطب في سوريا لأني لم أحصل المعدل المطلوب، لكن حالفني الحظ، وقبلت مصادفة بمنحة دراسية في إيران.

عشت في إيران ثماني سنوات جميلة مع أصدقاءٍ سوريين، لم أشعر يوماً باختلافي عنهم، ربما لأنني كنت أحبهم وأشعر بعدم الاختلاف عنهم، ربما كنت واهمة، وربما كان الأمر بالفعل كذلك.

ووجدت نفسي مرة أخرى في عبادتي الصغيرة، وحيدة في مواجهة مع الذاكرة التي تطلب مني أن أتجرد من تسع سنوات في إيران، ومن كل الذين أحببتهم هناك.

بعد تسع سنوات من الغربة خارج الوطن وستة أشهر من الغربة داخله، أقبل من بعيد بخطواته المتثاقلة، مصطفى، الطفل الشقي، الشاب المتمرد الذي حمل رجلاً يكبره، بجبلين ورمى به في كومة التبن، ضارباً بعرض الحائط كل التقاليد لمناصرة صديقه المظلوم.

مصطفى الذي لا يهاب أحداً، فيما يهاب الجميع رجولته، يمشي محملاً بالصمت، كان الليل شديد الظلمة، لا كهرباء، لا صوت لتلفاز، ولا تجول في القرية بعد أن اشتدت حوادث الخطف، كان مصطفى يتنقل متوارياً كي لا يعلم بوجوده أحد المخبرين، خشية أن يتم القبض عليه بتهمة الفرار من الجيش، حاول البعض إقناعه بالعودة إلى القطعة العسكرية، خاصة والده الذي كان من فرقة الحزب الشيوعي المتصالحة مع النظام، لكن دون جدوى، البعض شجعه على قرار الانشقاق ووصفه بالبطل، أما أنا، فكنت أرى الموت يحلق حوله ويريد اختطافه مني، سألته مرة: هل تعلم أنك تسير في طريق خطر قد ينتهي بالموت؟ فأجاب: كلنا نسير على هذا الطريق، وأنا لا أبحث في هذه الحياة إلا عن شبرين من التراب، لأرقد بسلام مع ما أملك من كرامة. حينها فقط أدركت أن هذا الشقي الذي أرسل لي عندما كنت في

الجامعة رسالة حملت لي الكثير من المعاني، (علبة من البسكويت تحتوي على الكثير من العيدان القمحية المالحة كنا نشترك بلبراتنا على شرائها وعلى أكلها معاً).. مصطفى، هذا الشاب المتمرد الذي كنت أخاف أحياناً من عضلاته حين نتشاجر، أصبح رجلاً، واتخذ قرار المضي، لكن نحو ماذا سيمضي؟ لم أمتلك إجابة، بل المزيد من الخوف.

في بداية الثورة كان البعض متردداً حائراً، خاصة الضباط والمجندون، تعتيم إعلامي في القطع العسكرية وبث لشائعات حول وجود مجموعات إرهابية تريد تخريب البلد، ومنع للمجندين من التواصل مع ذويهم، في محاولة من النظام لقمع التظاهرات وتسميتها "فوضى."

كان مصطفى قد أنهى خدمته العسكرية برتبة رقيب أول، منتظراً قرار تسريحه الذي تأخر إلى أن تم استدعاؤه ذات يوم بشكل مفاجئ وفوري.

"نفذ ثم اعترض"، هذا هو قانون الجيش، لكن في هذه المرة كان القرار "نفذ ولا تسأل لماذا ولا تعترض"، أمر مصطفى بأداء واجبه الوطني، وتصفية أحد الضباط خلال مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة، لاحتمال تعاونه مع المجموعات المسلحة، لأن أحد العناصر شاهده يتابع (قناة التضليل الإعلامي) قناة الجزيرة.

خرج من غرفة الضابط يتحسس أصابعه، تلك التي لا تعرف لون الدم ولا رائحته، مشى طويلاً بعد ما تبقى له من ساعات قبل أن ينفذ مهمته، يتساءل: ترى من من رفاقي كُلّف بتصفيتي أنا؟ مشى طويلاً في الأرض القاحلة، فاعترضته سيارة شحن، صعد وجلس قرب السائق دون أن يتفوه بحرف، كان السائق يراقب هذا العسكري عريض المنكبين بين الفينة والأخرى، دون أن يسأله عن وجهته، أما مصطفى، فلم يسأله إلى أين يسير، لأنه هو، لا يعرف وجهته، وقبل دخول مدينة حمص طلب السائق من مصطفى أن يتابع الطريق سيراً على الأقدام، وأرشده إلى الطريق البعيد عن الحواجز، قائلاً له: يمكنك المتابعة معي لو كنت تملك هويتك المدنية، فهناك عدة حواجز في بداية المدينة، قال هذا وصمت، وكأنه يدرك تماماً قصة مصطفى التي تشبه الكثير من القصص، ولربما يصادف كل يوم عسكرياً أو اثنين قد كُلِّفوا بمهام مشابهة.

هكذا مشى مصطفى سيراً على الأقدام إلى أن وصل إلينا. قضيت ومصطفى عشرين يوماً متتالية نتحدث عن كل شيء، وكأننا نعوض سنوات العمر التي سرقت منا.

ذات مساء، كنت مع أم مصطفى وأخواته نأكل ورق العنب (أكلته المفضلة)، ونتذكره بعد أن التحق بالجيش الحر، وإذا به يتصل مصادفة ويسألني بصوت هادئ متزن: أين أنتِ؟ فأجبته: أنا عند والدتك نأكل ورق العنب . -ها.. إذاً أنت بعيدة .

وحين استفسرت، أجاب: ليس هناك من أمر مهم، تعرض صديقي لحادث بسيط، وأردت أن تعقمي جرحه، وما كان مني إلا أن قلت: "حل عني أنت ورفيقك.". في صباح اليوم التالي عدت إلى قريتي وعيادتي الصغيرة، فوجدت ابن عمي مصطفى يكابر على ألمه، وعرفت أن صديقه المصاب كان هو، وأنه كان يبحث عني لأضمد له جراحه التي أصيب بها، عندما تصدى لدبابة قادمة إلى قرانا لتقتل أهلنا، وأوقفها، مضى دون أن يحمل رصاصة واحدة، بينما تهاتف بعض الصغار فرحين بالغنيمة، هذا هو مصطفى، يحمل من المعارك أوسمة من الجراح فقط، ويمضي.

كم هو مؤلم جرحك يا مصطفى، وكم هو مؤلم غيابي وأنت تتألم ياشقيق الروح.

تتالت الأيام بين معركة وأخرى، وبين قصف وآخر، وصار الانشقاق من الجيش فخراً، وبات أهل القرية يمطرون السماء بالرصاص عندما يعود إليهم أحد أبنائهم، فخراً بانشقاقه وعودته، أدرك الجميع أن قرار انشقاق مصطفى لم يكن ليتخذه في ذلك الوقت إلا الرجال.

كانت أيامي القليلة معه ورفاقه هي الأجمل، وأنا أمسح عن جروحهم الشظايا والألم، استيقظت ذات فجر على صوته وهو يطلب مني نزع الشظية من جفن أحد رفاقه، اتجهت إلى عيادتي وأنا أشتمه وأشتم رفاقه لأنهم أيقظوني، لكني فخورة بهم، وفخورة بإصابعي لأنها لامست جباههم، دخلت الغرفة، فوجدت طفلاً في السابعة عشرة، خائف يحدق بي برعب، كان اسمه "أيمن العمد" من دمشق، انشق عن إحدى الدبابات المتجهة لقتل أهلنا في اعزاز، ولجأ إلى مصطفى الذي حضنه ووعده أن يكون في أمان، قال له: "طول ما أنا عايش أنت بأمان ." نزعت الشظية من جفنه وسألته: هل كنت ذاهباً معهم لتقتلنا؟ هل نحن إرهابيون حقاً يا صغيري؟ فانفجر بالبكاء، طلبت منه أن يهدأ، وذهبنا به إلى بيتنا، فأبى أن يأكل من طعامنا، وبقي ملتصقاً بمصطفى الذي راح يقاسمه كأس الشاي، ليطمئن أنه خال من السم، هكذا إلى أن أصبح أيمن أحد أفراد القرية، وأشجع شباب الجيش الحر، وأبى أن يعود إلى أهله في دمشق واستشهد بتاريخ ٢٠١٢/٩/٨، حتى دفن في قرية حيان في حلب، لم أكن أشعر بالسعادة إلا حين يفاجئني هذا الشقي مصطفى بزيارة خاطفة، وكلما مرت سيارة للجيش الحر كنت أركض نحوهم، لعله يكون قادماً، كان يأتي دائماً، لأننا كنا ننتظره، ولأنه كان إذا وعد وفى، صباح الجمعة ٢٠١٢/٨/٣١ ليس كباقي الصباحات، أمي تعد وليمة من اللحم تشبه ولائم الأعراس على نار الحطب، إذ لا يوجد غاز أو كهرباء في القرية، وأنا أتخبط في باحة المنزل يمنة ويسرة، قلقة مضطربة.

وقفت سيارة الجيش الحر أمام دارنا فركضت ظناً مني أنه جاء، لكن شاباً آخر كان في الباب، فعدت أدراجي، جلست حول نفسي وكلي عنده.

دخل أخي ونظر إلينا جميعاً بصمت، ثم رمى على الأرض بقامته التي تبلغ المترين، وانفجر بالبكاء .

لايمكن لأخي أن ينفجر بالبكاء إلا إذ كان الأمر يتعلق بمصطفى، فمرحباً بكل الاحتمالات، ومرحبا بقضاء الله وقدره، لكنه حتماً ليس الموت.

امتدت يدي إلى سطل الماء، واختلطت قطرات الماء بدموعي، توضأت وصليت، وبدأت أكبر وأهلل فرحاً بقدوم مصطفى، لأنه، كما وعدني، سيأتي ولو محمولاً على الأكتاف.

جثت القرية على ركبها وغشيها السكون، لا صراخ، لاعويل أو ثرثرة، حتى والدة الشهيد كللتها الطمأنينة، لربما هيبة رجولته وحدها راحت تطوّف في المكان، وصلت السيارة التي تحمل الشهيد، وانفجرت القرية التي كانت هادئة، وكأنه يوم البعث، جميعهم يركضون نحو الشهيد، أبصارهم ذاهلة عمن حولهم، وأنا بين الجموع لا أعي في أي زمان أنا، شلالات من الرصاص تتساقط على الأرض لاستقبال الشهيد، غير آبهة بطائرة الغدر التي راحت تحوم فوقنا خائفة أن تقترب أكثر، يختفي هدير صوتها بين زغاريد الحناجر، ليختفي صوت صراخي أيضاً أمام عظمة المشهد.

صعدت سيارة الإسعاف مترددة، وأنا الطبيبة التي لا تخشى الدم ولا الرصاص، طريقي إلى مصطفى كانت مكتظة بالرجال، تباعدوا جميعاً من أمامي وكأنهم يفسحون لي الطريق لأصل إليه، صعدت السيارة وكلي أمل أن أراه حياً مبتسماً، أو حتى نائماً، مددت يدي أتحسس جسده فلم أجد مكاناً لشظية أو رائحة للموت أو الدم، هززته من أسفل قدمه لأوقظه بهدوء، لكنهم حملوه من أمامي أولئك القساة، حملوا مصطفى من أمامي وظلت فردة جوربه عالقة في كفي، متصبغة بالدم والتراب، جلست في سيارة الإسعاف التي ظلت تطلق زمور الإنقاذ، عاجزة مرة أخرى عن تضميد جراحه، بعيدة مرة أخرى عنه، حولي غطاء يفوح بالمسك، ومعي أطياف كل من مر عليه من الشهداء، أتساءل: كيف كانت جراحهم؟ وهل كان قربهم طبيب ليضمدها؟ وأشعر للمرة الألف بعجزي، بخوفي من الموت، وبالعري والبرد بدأ يدب في جسدي، طبيبة فقدت شجاعتها أمام زلازل الموت.

جاء مصطفى كما وعد، ليرقد في سلام قربنا، مخضباً بالكرامة، بعد أن خطفته رصاصة قناص وهو في حي صلاح الدين بمدينة حلب على الخط الأول في جبهة الشرف، رحل عنا وعن رفاقه وصديقه أيمن الذي وعده أن يكون بخير طالما هو على قيد الحياة، أيمن الذي استشهد بعد شهرين من تاريخ فجيعة قلبي ليسافر إلى حيث مضى مصطفى.

أما أنا، فخلعت عني ردائي الطبي بعدما ليسني من عجز وضعف أمام موت وطني، وبعد أن بتر حلمي في غرفة العمليات، لأمضي أنا الأخرى متجردة من كل شيء حتى من نداء قلبي . لملمت ما تبقى من أجزائي الحية ووضعتها في حقيبتي الصغيرة، مع جوراب مصطفى وبعض القطع الذهبية، ومضيت كما مضى مصطفى يوماً، دون أن أعرف أين أسير، تماماً كما لم يعرف هو أين كان يسير، أتشبث بحقيبتي الصغيرة كما تشبث يوماً بمبادئه، أحملها معي وكأنها جواز سفري، أضمها إلى جوراب مصطفى المخضبة بكل شيء، دون أن أدري لم أفعل ذلك، أو أين أمضي.

تجاعيد المخيم

قصة تفريد محمد

عمل للتشكيلية رهاب البيطار

لم يكن صوتها كافياً كي تجبره على فتح الطريق. لم تَعُدَّ طلقاتها ولم تحسب عدد الدقائق بينَ الوجعِ والآخر.
بين الحصار وما وراء كل شيء، يختلف والمعيار الوحيد هو إنسانيتك، والوجه المضيء من الغيم الأسود.
صوتٌ قريب مبحوح:
-تبلدنا بالحربِ، صرنا محتاجين إلى نوع أخر من الموت، مللنا رصاصات الرحمة والجوع، نحتاج لنوع آخر من الموت كأن أقضي ثلث يومي على طابور المساعدات هذا، أو أبيع ذكرياتي المتبقية برغيف خبز.
قالت هذا وأكمَلَتْ:
-(ليش حاطة كمامة وكفوف كنك قرفانة مني)!.
لم تكن الحجة أم صالح ذات الخمس وستين نكبة هي الوحيدة التي تتكلم هناك. كل النساء كن يتدحثن دون صوت مسموع. فالخوف الكبير أو لكمة أخمص خشبي ليس ما يخشينه، إنما نقض الوعد الذي وعدن به أطفالهن (سنعود ومعنا خبزٌ وكرتونة).
توضأت وتغسلت سبع مرات خوفاً من شهادةٍ مباغتة، كما أوصتني أمي، ونزلت إلى أول المخيم، الذي هجرته مرغمة، واستأجرت بيت نزوح يبعد عنه أمتاراً قليلة، مثل كل يوم، أوقّع، أفتش جيداً، يعدّون سجائري ويبحثون عن أي تهمة قبل دخولي ليمنعوا إنسانية ما من الدخول، المخيم محاصر منذ سنتين، لا خبز لا دواء، لا طعام أو خضار، عشرات من شهداء الجوع، كل الأثداء جفت كقطع التين المجفف، الأطفال ترضع شوربة البهارات، والطبخة الوحيدة هناك ((رجل العصفور))، وهي عشبة سامة تهرب منها الحيوانات، خبز العدس وهو البديل الوحيد في بداية الحصار، لكنه اختفى تماماً عندما اختفى العدس.
الكهرباء دائماً مقطوعة، والماء أيضاً، لا يوجد شيء في المخيم، كل الأشياء تأخذ بيدك نحو الموت بحرارة، عندما سيطر الجفاف واليرقان على أولاده، لم يكن هناك إلا مشفى واحد فقط، بكادر طبي صغير ومواد معدومة، لم يعد هناك سيروم ملحي، حتى أن كل مريض في المخيم بات مشروع شهيد، لم يكن المخيم هكذا أبداً، كان وطناً صغيراً لكل الفلسطينيين، الكرامة تشع من وجنات النساء، والرجال كما السنديان، الآن كل المعايير اختلفت، والمخيم جائع، لكنه "شبعان كرامة"، شيء وحيد لم يختفِ في الحصار وهو الموسيقى، ظلّ البيانو ذو العجلات الأربعة يعزف و"يفتل" في شوارع المخيم، مصطحباً الأطفال، يغنون دائماً، دائماً كان أيهم يحاول أن يلهي الأطفال بنوتة موسيقية، علّه يخفي صوت قرقعة بطونهم.
نقطة التوزيع - شارع راما
العسكر على امتداد العين، إغاثيون وصحفيون، آلاف المدنيين خلف الساتر الترابي، الساتر الذي يفصل ساحة الربجة عن شارع راما، الذي يفصل الموت عن الحياة، الذي يفصلني عن منزلي وذكرياتي وقضيتي، هذا الساتر يفصل أشياء كثيرة عن بعضها، الجوع عن الشبع، الكهرباء عن الظلمة.
خلف الساتر منتظرين منذ ساعات الصباح الأولى، كل النساء تبكي، كل الرجال مقسومة الظهر، مهدودة الحيل، الجميع يصرخ الأونروا لا تهتم لأحد، الكل يحاول الهرب من فوق الساتر للوصول إلى طابور التوزيع، وإذا أمسك العسكر أحداً يحاول الهرب، أرجعه بالضرب و"الترفيس."
كل رجل مشروع معتقل، ومن ثم شهيد تحت التعذيب، كل الوجوه صفراء هزيلة، كل الملابس ملطخة بالتراب والطين، العدد هائل أمام عيني، أقف، أدور، أصرخ، أبكي، أحضن كل امرأة تبكي، قبّلت يد كل عجوز شعرت بكسر نفسها، هرّبت الكثير من المصاص والبسكويت إلى قلوب الأطفال، جلسنا على الردم نصنع سندويشات المربى ونوزعها مع حبات التمر على الأهالي الذين نزلوا ووقفوا على الدور، أتذكر كيف أعطيت امرأة نصف رغيف مدهون بمربى المشمش، فصفعتني به حتى سال الدبق من وجهي، أفرغت كل قهرها وقالت:
-أنا مش جاي هون لتشفقوا علي.
من فوق الساتر كانت تمر الحالات المريضة والإصابات، أرجل مقطوعة، التهاب كبد وبائي، عجائز، رضع، حوامل، إلخ (عشرة،عشرة). لم يغادر هذا الرقم ذهني، عشرة أشخاص فقط ينزلون عن الساتر، يختارهم العسكري بعناية فائقة، ينزلون يقفون في دور أبو حيدر العسكري، الذي لم يكسر خاطر أحد استنجد به، كان رجلاً طيباً، لكنه عندما يغضب، لن يستطيع أحد تهدئته، كان أبو حيدر هو المسؤول عن جمع لبطاقات الشخصية وإرسالها للعميد، وبعد انتظار ساعات يأخذون الكرتونة ويعودون للمخيم عن طريق طلاقية صغيرة مفتوحة على مدخل بناء يوصلنا لشارع البرموك الرئيسي، كانت لا تتسع لحمل الكرتونة

بالعرض، ويجب عليهم حملها على رؤوسهم ليستطيعوا العبور، ولو عادوا من الساتر لتمزقت الكرتونة إرباً، الجوع كافر، كنا نضع ربطة الخبز وعلبة مربى أو دبس وقطعتين بسكويت سادة في كيس نايلون نرفقه مع الكرتونة، وكان عسكري يعدُّ بعدنا ما نضع، لم يكنْ يثق بنا، وكان الفريق الإغاثي مكروهاً وغير مرحب به، لطالما حاولنا وضع علبة إضافية لكنه كان يخرجها ويدوسها بقدميه تحت البسطار، ويشتمنا ويشتمهم ويمضي.

الاشتباك هو أكثر شيء مخيف بالنسبة للأهالي، ليس خوفاً من رصاصة طائشة، بل لأن التوزيع سيتوقف حتماً.

أعلن الضابط المسؤول إيقاف التوزيع عند الخامسة، لم يستوعب أهل المخيم العودة دون الخبز والطعام، فانفجروا غضباً، اجتازوا الحاجز بالآلاف، داسوا كل من كان يقف هناك، لم يهتموا لأحد، كان الغضب ثائراً، لم يقف في وجههم شيء إلا سلاح (أبو جعفر)، ذلك الشاب الذي اقتلع قلبه ووضع مكانه نبتة صبار، الذي لا يميز بين طفل ووحش، عليه أن يعتقل أن يقتل، كل منهجيته سلاحه والأوامر المتلقاة، بدأ يطلق النار في الهواء، ومن ثم باتجاه المدنيين، فيما يحاول عناصره إخراج الناس من الطلاقية الصغيرة، لا صوت لصوته، لا دخان لسجائره، لا قلب لجسده، وهو يضع سلاحه على كتفه الموشوم يرتشف الحقد دفعةً واحدة ويصرخ، يضرب ويشتم، لا أستطيع تمييز شيء ولا أسمع شيئاً، كل الكون توقف هنا، كل شيء ثابت، استنجادات البشر، امرأة تقبل يد شاب من أجل رغيف خبز واحد، رجل يبكي دون صوت، الغبار يحاصر المكان كما لو أنه دوامة تبتلع كل التفاصيل، النقاط الطبية أخلت المكان، الأونروا غادرت دون أن تلتفت خلفها، لم يبقَ سوى فريق الإغاثة والجيش، الطلاقية ستنفر من ضغط الكتل البشرية، أحاول أن أتكلم مع أبو جعفر، أصرخ، كان منوماً مغناطيسياً لا يسمع، لا يرى، وحشاً يصطاد فرائسه بعناية، كان يسد منافذ الهواء بجسده، من آخر الطلاقية من الجهة المقابلة، أسمع صوت صراخ ألفه، أتحدث مع نفسي، أنا عشت هذا الوجع قبل الآن، أعرف هذا الصراخ جيداً، إنه المخاض، أربعة شبان يحملون نقالة طبية يحاولون إخراجها بعكس دخول الأهالي، امرأة عشرينية تحمل الحصار في رحمها الصغير، وتحاول ولادته في فسحة أمل، كأن تفتح عينيه على سماء دمشق، أبو جعفر منهمك بضرب امرأة يضعها تحت قدميه ويفرغ فيها كل الكره، كأنه يرى بجسدها النحيل كتيبة ق هزمت جبروته مرّة، يقف أبو جعفر على بقايا ردم ويقول:

-انقبروا رجعوها إن شاء الله بتموت مارح نمرقها.

هنا كل حواسي اشتعلت بشكل مضاعف، كل طلقةٍ في رحمها أحسها في قلبي، صرخت في وجه أبي جعفر ضربته على كتفيه لم يكن طولي كافياً كي أصل إلى وجهه، لم أفكر بتوابع الذي فعلته، استيقظ أبو جعفر من تنويمه، جدّف في وجهي وأفسح الطريق، خرجت المرأة، وضعوها في منتصف نقطة التوزيع، لا مسعفين في المكان، لا سيارات إسعاف، ما من أحد، لست ممرضة ولا طبيبة ولكنني أم ولم أملك تلك الجرأة في حياتي، خلعت حجابي عن رأسي وغطيت ساقيها، وجلست تحتها طلبت أن تضغط للخارج، يداي ملطختان بدبق المربى والتراب الأسود وسائل المخاض، خرج الطفل على يدي في ذات الوقت الذي عادت فيه سيارت الهلال الأحمر، أخذوها موصولة بجنينها بحبل سري، بقيت واقفة في مكاني، توضح المكان، ظهرت كل ملامحه، رأيت العلم الفلسطيني الذي خرقه الرصاص، توضحت الألوان، تسمّرت في مكاني، يداي ترتجفان ونظي مثبت على أصابعي.

أتذكر أن أبا جعفر ابتسم عندما رأى وجه الجنين، وبعدها ألحق اسمي بقائمة الممنوعين من دخول شارع راما.

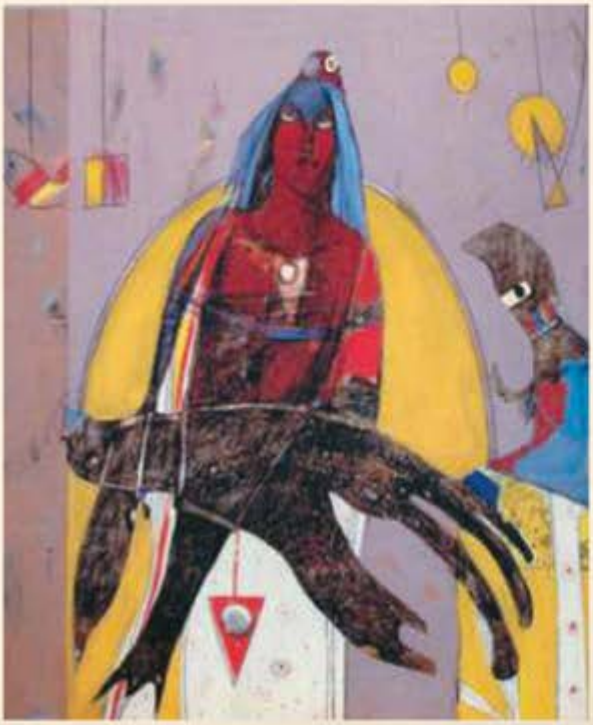

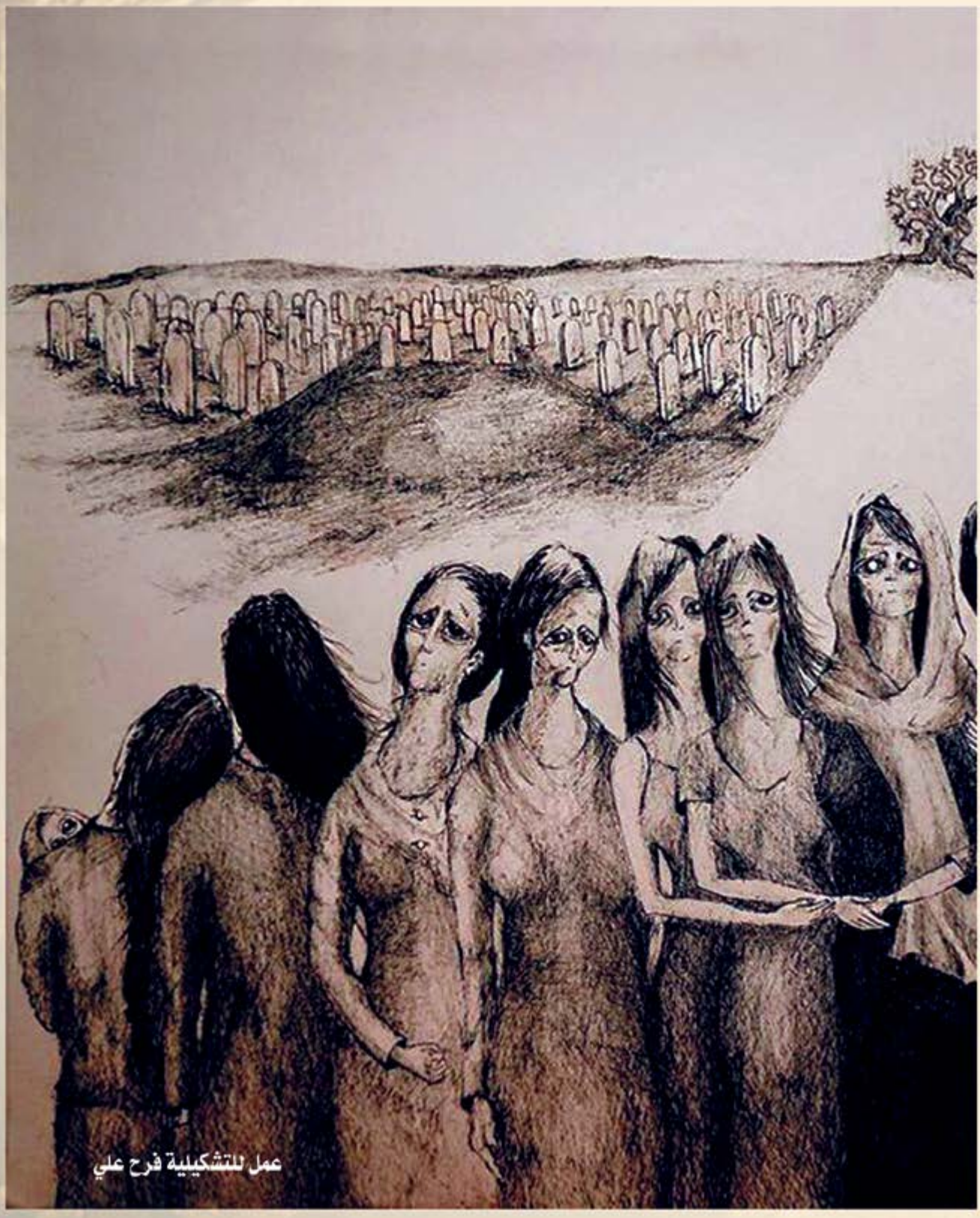

عمل للتشكيلية فرح علي

نوار

قصة فلك الخالد

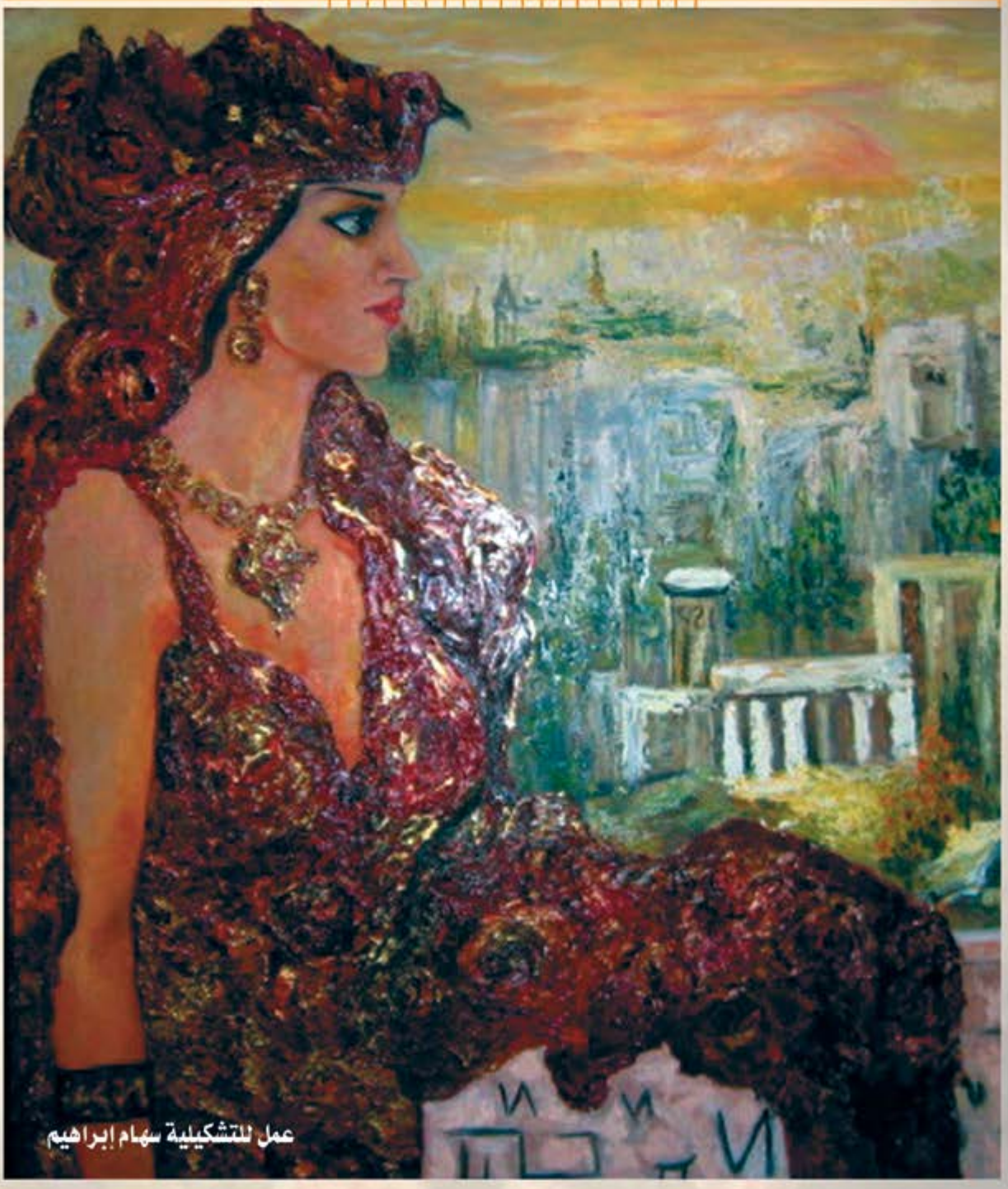

عمل للتشكيلية سهام إبراهيم

شتي يا دنيي تا يزيد موسمنا ويحلا تدفق مي وزرع جديد بحقلتنا يعلا

أوّلُ النغماتِ الموسيقيةِ التي تلعثمتْ بها كمانُ أخي العائدِ لتوّهِ من درسِ الموسيقا الذي تلقاهُ عند أستاذِهِ.

كنتُ أتتبّعُ كلّ نغمةٍ من النغماتِ وكلّ ما يقولهُ عن الأستاذ، أنامُ في تلك اللّيالي الشتويةِ الباردةِ، مستأنسةً بنقرِ حبّاتِ المطرِ على نافذتي المنسجمةِ مع نغماتِ الكمان وهي تصدح.

أسبحُ مع أحلامي عمّا سأحدّثُ به صديقاتي في المدرسةِ، اللواتي بَدأنَ يرتبنَ في أنني أعرفُ ذاكَ الأستاذ، ولكنّي أُخفي الحقيقة، جاهدة أحاول رسمَ صورتهِ على مقاسِ فتاةٍ لم تكملِ الرابعةَ عشرة بعد.

أنتظرُ أخي بفارغِ الصبرِ ليعودَ من درسهِ، ويحدّثني بإعجابٍ عن مدرّسهِ، كيف لا، وهو أوّلُ مَنْ درسَ الموسيقا في بلدةٍ ما زالتْ تنظرُ إلى الفنِ والفنانِ نظرةً فيها الكثيرُ من الرّيبةِ.

هذا كله لا يعنيني، المهم أنْ أسمعَ ما تحدّثَ به الأستاذُ عن الموسيقا، عن السياسةِ، عن الثقافةِ، أنتظرُ الكتبَ والأغاني التي ستزورُ بيتَنا، لأتصفحَ وأسمعَ، علّني أستطيعُ أن أكمّلَ صورتهُ في مخيلتي.

على غيرِ عادتهِ عادَ أخي شاحبَ الوجهِ، سألتهُ والدتي: ما بك؟

قالَ متنهداً: أحمدُ (أستاذُ الموسيقا) اعتقِلَ من قبلِ رجالِ الأمنِ مع عودهِ، لدى خروجهِ من حفلةِ عرسٍ أُقيمَتْ في منزلِ صديقهِ.

لم أعُدْ قادرةً على الاصغاءِ إليه، أحسَستُ أنني وسطِ زوبعةٍ، فكلماتُهُ وقعتْ صاعقةً فلقتني نصفين.

جفاني النومُ، أيعودُ يا تُرى؟ أبعد غدٍ؟ أبعدَ شهر.. سنةٍ؟ راحتِ الأيامُ تمرُّ متثاقلةً، وطالَ شتائي، لم يتدفقِ الماءُ، ولم يعلُ الزرع في حقليَ.

في زنزانتي الكبيرة أعدُّ أيامي، غالباً ما أكونُ معهُ في زنزانتهِ الصغيرة، أغنّي معهُ ولهُ أغنيةً لطالما ردّدَها حتى أصبحتْ واقعاً، (هيه يا سجانة.. هيه يا عتم الزنزانة).

أيُّ عتمٍ يلفّهُ الآن في زنزانتهِ، زنزانتي أكبر، لكّنني أرى الأشياءَ فيها أشباحاً، أحسُّ بعتمةٍ ورطوبةٍ وعفونةِ زنزانته، وأنا أتأمّلُ جدرانَ بيتِنا الرطبة، لم تعدْ تفاصيلُ الزمنِ تعنيني، أستعجلُ قدومَ الليلِ، أطفئُ الأنوارَ ، ولحسنِ حظي كانتِ الكهرباءُ تهربُ من بيتنا بشكلٍ طبيعيّ، ليبقى العتمُ سيّد الموقف، فراغٌ مظلمٌ يحاصرني، يحاصرُ أحلامي، حاضري، مستقبلي، وحدهُ أنينُ الكمانِ يصرُّ على معاندة الفراغ والليل والعتم، يتسلّلُ إلى ذاتي، لعلّهُ الحبلُ السريُّ الوحيدُ الذي ما زالَ يربطني بسجينٍ لا أعرفُ متى يعود!

لم أعُدْ أحدّثُ صديقاتي عن أستاذي (حلمي)، أنزوي في مقعدي شاردةً، أتأملُ بكراهيةٍ تلك الصورة المعلقة فوق السبورةِ، وجملةُ (الأب القائد) التي كُتِبتْ فوقها، متمنيةً أن أُضيفَ (ليس) قبلَ (الأب) وقبلَ (القائد)، لتصبحَ ليس بأبٍ وليس بقائدٍ مَنْ يسرقُ فرحَنا وأحلامَنا، وأعودُ بحبلِ ذكرياتي وأنا طفلةٌ أرافقُ أمي في الأعيادِ، لزيارةِ قريبتها العجوز، التي سرق الأبُ القائدُ فلذات أكبادَها الثلاثة وفرحةَ عمرِها، في كلّ عيدٍ تجتمعُ النسوةُ في بيتِها، ليتحولَ فرحُ العيدِ إلى مأتمٍ يبكين فيه، ثم ينصرفنَ وتبقى العجوزُ تبكي وحدها، حتّى تساوى ليلها بنهارها، وتلوّنتْ بالأسودِ أيامها، بعد أن فقدتْ بصرَها ومن ثمّ حياتها.

أيقظتني من حُلمي مدرسة اللغةِ الإنكليزية التي لاحظتْ تراجعي في الأيامِ الأخيرة، ليتني أستطيعُ أنْ أحدثَها عن حالتي المُحبطةِ، لأقولَ لها: إنني لستُ وحدي مَنْ أُحبِطَ، بل كلُّ عشاقِ الموسيقا والثقافةِ والحريةِ اعتراهُم ما اعتراني، ولأنهم ذكورٌ فهم يعبرون بحريةٍ عن آمالهم وأحلامِهم، أمّا أنا الفتاةُ القابعةُ على هامش مجتمع الذكورةِ، ليس منْ حقي أنْ أعبّرَ، أن أصرخَ في وجهِ أيّ ذكرٍ، ابتداءً من إخوتي وانتهاءً بالجلادِ، (لماذا تغتالون أيامَنا وأحلامَنا)؟

تمرُّ الأيامُ متثاقلة، أضيق بها مثلما يضيق الغبارُ بالريح، أنتظرُ المطر، أنتظرُ الفرحَ.

ها هي أوّلُ البشائرِ تلوّحُ بقدومِ الأجملِ، فكم كانتْ فرحتي كبيرةً بحصولي على الثانويةِ العامّة، ما يسمحُ لي أن أكملَ دراستي الجامعيةِ بقسمِ اللغة الإنكليزية التي أعشق، لكنّ الخيبةَ حاصرتني من جديد، فكلُّ الظروفِ غيرُ مواتيةٍ لأنْ أكونَ طالبةً تغادرُ بلدتَها من أجلِ تحصيلِها العلميّ، وككلِ الخيارات المرّة ، كان لابدّ من خيارِ اللغةِ العربية، حتّى هذا الخيار لم يعدْ ممكناً بعد انْ التحقَ أخي الكبيرُ بخدمةِ العلم، وسافرَ الصغيرُ وراءَ لقمةِ العيشِ.

لم يبقَ في البيتِ سوى غبارٌ وكمانٌ وعجوزٌ هجرها زوجها، مكتبةٌ صغيرةٌ وبعضُ الأغاني هي كلُّ ما يشدّني إلى أحياءَ كانوا هنا وسافروا إلى البعيد.

غالباً ما كنتُ أفتّشُ عن أشياءَ تجعلني أشعر بوجودي، فاليوم شاهدتُ فيلماً بعنوان "الغجر يصعدون إلى السماء". يا إلهي كم تأثرتُ به، دمعت عيناي، تمنيتُ أن اكون تلكَ الغجرية التي رقصَتْ لعازفِ الكمان.

آهِ لو يعلم أنّ فتاةً صغيرةً كانتْ ترى فيه حلمَها، وأعيَتْها الحيلة وقلة خبرتِها مِن أنْ تثيرَ اهتمامَهُ، ليكون حبّ تلكَ الغجريةِ زاداً له في زنزانته. فلا عزفَ لي، ولا رقصت له، تلك أيامي تذوي كما تذوي أزاهيرُ الشتاء.

عادَ أخواي من الغربة، صخبُ شبابٍ دبَّ في منزلنا، أنينُ الكمانِ بدا أقلَّ وجعاً، أغيّرتْ نغماتِها، أم أنّ ما قاله أخي: "أحمدَ قد صنع عوداً من الأخشاب المتوفرةِ في سجنهِ" بدّدَ بعضاً من وجعي، ليُبدلَ أنين الكمانِ إلى فرحٍ؟

استشعرتُ دفءَ نوّار، تسلّلَ إليها الأمل لتدبَّ فيها الحياة من جديد.

بتُّ أنتظرُ الأخبارَ التي ستتوالى من أهلِ أحمد بعد كلّ زيارةٍ له في السجن.أصبحَ زمني يتمحورُ حولَ ما قبلَ الزيارةِ وما بعدَها، عدتُ إلى حديثي مع صديقاتي عن حُلُمي وأستاذي، أحلمُ بزيارةٍ أعرفُ أنها لن تحصلَ.

بريقُ أملٍ شعَّ بداخلي، بقرارِ العفوِ الذي صدرَ بحقِ بعض السجناءِ، وصلَ بعضُ أقربائي الذين أفرج عنهم، أسرعتُ لزيارتِهم علّني أتلقفُ خبراً، كلمةً تخصُّ مَنْ أحلم به.

شعورٌ ما يشدّني إلى كلّ سجينٍ، هَمٌّ آخر أضيفَ إلى همومي الخاصة، يتعلقُ بوطنٍ فيه جلادٌ يعتقلُ كلَّ مَنْ يخالِفُهُ.

زخاتُ مطرٍ تداعبُ نافذتي، قوسُ كمانٍ يغازلُ الوتر، إبرةُ خياطةٍ أدمتْ إصبعي قبلَ أنْ أُنهِيَ تطريزَ آخر زهرةٍ على قميص أرتديه أوّلَ مرةٍ ألتقي فيها مَنْ سيخرجُ من سجنه، كلَّ هذه التفاصيل زادها توترُ أخي الكبيرُ لتأخرِ أخي الصغيرِ بعودتِه، بعد أنْ أوغلَ الليلُ في ساعاته، أنهيتُ آخرَ قطبةٍ في قميصي، حاولتُ أن أخففَ من قلقهِ، نظرَ إلى الساعةِ: "إنها الرابعة صباحاً..". لم يسمحْ له صوتُ قَلْقلَةِ المفتاح أن يكملَ عبارتَه، اتجَه مسرعاً نحو البابِ والغضبُ بادٍ على محياه، قابلهُ أخي الصغيرُ بابتسامةٍ، وقال: "أُفرج عن أحمد، وذهبتُ مع مجموعةٍ من الأصدقاءِ إلى المقبرةِ لنلتقيهِ هناك، فقد أصرَّ أن تكونَ المقبرةُ أوّلَ مكانٍ يزوره، ليُلقي التحيةَ على أبيه وأخيه". لم تعنِني التفاصيلُ أمامَ ما كنتُ أرتابُ بأنه يقينٌ وتحققَ.

خلدتُ إلى فراشي وعيناي مسمرتانِ إلى النافذةِ، ليتني أستطيعُ مغادرة غرفتي كعصفورٍ أو فراشةٍ، سمعتُ موسيقاهُ ترافقني، تأخذني إلى ألفِ حلمٍ وحلم، وتعيدني إلى غرفتي، غازلَ ضوءُ الصباحِ نافذتي بلونٍ آخرَ ورائحةٍ أخرى غيرِ كلّ الصباحاتِ، تُرى هل يعلو زرع حقلتنا بعدَ كل هذه الأمطار؟

تعمدتُ أن أثيرَ الضجة في البيت ليستيقظَ شقيقايَ من النوم، متأكدةً أنني لن أجرؤَ على مصارحَتِهما برغبتي الذهاب معهما لرؤيةِ مَنْ انتظرت، لكنْ لا أحدَ يستطيعُ أنْ يمنعني من الوقوفِ على السطح أشيّعهما بنظراتي عساها تدخلُ معهما إلى بيته.

حالةٌ من الفرحِ يشوبها شيء من اليأسِ، فها هو مَنْ أحبُّ حر طليق، ومع ذلك لا يمكنني لقياهُ، ولا أستطيع التجاهل أو النسيان، لا هاتف لدي، وهو كذلك، ما من شخص مصدر ثقةٍ بيني وبينه، إلى أن بدأ بمشروعٍ مشتل زراعي، كم تمنيتُ أن أزورَه ويزورَنا، فأرى نباتاته ويرى السوسنة التي أحبّ ليكونَ الوردُ رابطاً آخر بيني وبينه، كنتُ دائماً أحاولُ إقناع أخي الذهاب معه إلى المشتلِ، ورؤيةِ النادر من الأزهار، ولحسنِ حظّي ها هو اليوم يأتي لزيارتنا بنفسِ الغرض، لا بدّ أن هنالك ما هو أبعدُ من السوسنِ والزهور، فاليوم أتعاملُ مع ذاتي كفتاةٍ تحدّتْ ظروفها، لتقفَ على قدم المساواةِ مع من يزرنَ معلم الموسيقا، فأنا الآن طالبةٌ في السنة الأولى قسم اللغة العربية، متحديةً الزمن بعد انقضاءِ سبع سنواتٍ على نجاحي في الثانوية العامة، وعدمِ تمكّني من متابعةِ دراستي لظروفٍ قاهرةٍ.أتراهُ يُعجبُ بهذا التحدّي؟

للمرةِ الثانية يصدقُ حدسي، فقد أخبرني أخي أن منْ أحب يرغبُ بلقائي، غمرتني سعادةٌ لم أشعرها من قبلُ، أتكتملُ سعادتي بعد هذا اللقاءِ ويتحقق حلمي، وبعدها لن أتوانى أن أقدمَ له زهورَ نوّارَ التي طالما حلمتُ أن أهديَها لهُ، بعد أيام من لقائنا وفرحتي به، تقدّم لخطبتي، غمرتني زهور نوّار ناشرةً عطرها داخلي، لتهمسَ: "آنَ أواني، قدّمي زهورَكِ التي طالما حلُمتِ أن تهديها لهُ، لكن غصةً بداخلي على أيام مضتْ، لم تسعفنا ظروفنا أن نكون عاشقينِ

حال دونها السجنُ. رغم فرحي وسعادتي وتمتعي بقسطٍ من الحرية، ما زالتْ مسحةٌ حزنٍ تلازمني. لا أدري إن كانت تأصلت فيّ من ماضٍ لم أستطعْ تجاوزه، أم بسبب ظرفٍ يُعيدُ الزمنَ مرةً أخرى ليُبعدني عنه.

بدتْ الهجرةُ المخرج الوحيد للخلاص من كل الإشكاليات، سافرَ، عدتُ إلى وحدتي، إلى الفراغِ القاتلِ. توزعتْ أيامي بين بيته وبيت أهلي والمدرسة، تغيرٌ في المكان لكن الزمنَ واحدٌ وتفاصيلهُ واحدة، أنا أتعذبُ مشتتة هنا، وهو كذلك، هذا ما يوحّدنا، ما نختلفُ عليه إصرارُهُ على العودة وإصراري على اللحاق به، إلى أن عادَ وشرعنا في ترتيبِ متطلباتِ حياتنا والتأسيس لحالةِ استقرارٍ، لكنّهُ بدا منشغلاً أكثرَ بما يجري في تونس، مصر وليبيا، أسئلةٌ كثيرةٌ فرضتْ نفسَها، أما آن أنْ يعلوَ الزرعُ في حقلنا وفي كلّ الحقول! أما أن لهذه الصورةِ المعلقةِ في إدارة المدرسةِ وفي أغلب الصفوفِ، والتي تصدمُ إنسانيتي كلّ صباحٍ، أما أن أن تغادرنا! وهل سيأتي يوم أدخلُ فيه دونَ أن أراها؟

لغطٌ في الحريقةِ في دمشق، بدا واضحاً أكثر في درعا، امتدّ إلى بانياس، إلى المناطقِ الأخرى، بدأنا ننتظرُ على أحرّ من الجمرِ، أيصلُ الحراكُ الشعبي إلى بلدتنا؟

على استحياءٍ كانتِ المظاهرةُ الأولى، عبّر فيها أهالي بلدتي عن تضامنهم مع باقي المدنِ، حسدتُ جميعَ النساءِ اللواتي مكنهنّ قرب بيوتهنّ من مشاهدة التظاهرة، بدأتُ أعدُّ الثواني لتأتي جمعةٌ أخرى علّني أشاهد أو أسمع صوتاً يهتفُ للحرية في شوارع بلدتي، أتتِ الجمعةُ، لم تكن التظاهرةُ خجولةً كان الهتافُ أعلى، فيها هم شبابُ بلدتي يهتفونَ للحرية، كم تمنيتُ ان أقذفَ أنوثتي جابناً واكونَ بينهم، عادَ زوجي وقد بُحّتْ حنجرتهُ، لأولِ مرةٍ أراهُ بهذه النشوّةِ، رأيتُ فيه شخصاً ولدَ من جديد، حدثني عن كل الهتافاتِ، راحتِ المظاهراتُ تتوالى في كلّ جمعةٍ، ولحسنِ حظنا أن بيتنا يقعُ بالقرب من المركز الثقافي، وهذا يتيحُ لي رؤية وسماع أطفال وشباب وكبار سن، يهتفون للحريةِ في عرسٍ وطنيّ، ليست فيه الصورةُ التي طالما تمنيتُ تمزيقها، هتفَ الرجالُ وتظاهروا، عبّروا عن أمانيهم، أنا المرأةُ متى سأهتفُ لحريتي التي أحتاجُها، بدأتُ مع بعض النسوةِ نثيرُ في لقاءاتِنا أسئلةً حولَ دورنا في الثورة ومتى سنشاركُ بها؟

شعورٌ لا أستطيعُ وصفهُ، اليوم ستشاركُ بعضُ "الحرائرِ" في المظاهرةِ المسائيةِ، لم أستطعْ انتظارَ الموعدِ المحددِ، حضرتُ قبلَ الموعد، أجيل النظرَ علّني أرى امرأةً تقفُ بجانبي كي لا أكونَ وحيدةً، وكم كانتْ فرحتي كبيرة عندما أصبحنا أربع فتياتٍ، انطلقتِ المظاهرةُ بتحية أربع حرائر . بدأ العددُ يزداد، سارتِ المظاهرةُ، ازداد عددُ الحرائرِ أكثرَ . ما عدتُ أقاومُ رغبتي بالصراخِ، أمطْتُ النقابَ عن وجهي ولسانُ حالي يقول: "ها أنذا أهتفُ للحرية في شوارع بلدتي، لكنني لم أستطع الاستمرارَ بالهتافِ إلاّ لمدةٍ قصيرة، فمكبراتُ الصوتِ وهتافاتُ الرجال كانتْ أقوى من أن تسمعَ أصواتنا.

كوليلك

قصة شيرين بريك

عمل للتشكيلية ماسة أبو جيب

روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني

لعلك وقفت عند قراءة هذه الكلمة لبعض الوقت.

هو اسم كردي لزهرة صغيرة، تنفضُ عن كتفها ثلج شتاءٍ طويل، لتفتح قلبها لأول دفء تبوح به الحياة.

على الطريق الموحل إلى مدرستها، والذي يحتضن كل صباح خطو فتيات إلى مبنى كتب على أحد أدراجه، "فتيات اليوم، صانعات مجد الوطن غداً."

رتابة الخطو قتلت في نفوسهن الطموح للتسلل بخواطرهن للغد، ولو لبعض الوقت أن المجد ينتظر بصماتهن، لتمسح الغبار عن رقاده هناك في قادم بطيء اسمه الغد. هل هناك اللون الذي طبعت به العبارة يستفز عزيمتها على الاستسلام اليومي لما خلف الجدار من تلقين لا تجد فيه ما يسمن وما يغني من يحيها عهالم تجده في مصنع ذاك.

أم أن الوطن ذاك الذي يرتسم لها في استراق سمعها لمناقشة والدها مع أخويها في غرفة الجلوس بعد إخلائها، ممن لا تتناسب الموضوعات المتناولة مع أعمارهم، أو أنها_كما قالوا_تلهيهم عن الاهتمام بالواجبات الدراسية.

تلك الواجبات التي لم تكن تحظى بالكثير من وقتها حين تغزر الأسئلة اليتيمة في ذهنها باحثة عن إجابات، وإن كان الوصول إليها يبدأ برأس خيط تجده في عالم يتسم ببعض الغموض والسرّية، كتب، مجلات، صحفٌ وصور يتصفحها الأب والأخوين باهتمام، بيد أنها لم تكن تتصدر المكتبة كباقي الكتب.

هنا علمت كوليلك أن الوطن الذي ينتظرها وزميلاتها ليرسمن غده، وطن زائف أو لعل خداعاً ما كالتلقين في كتبها التي اضطرت لتحملها بين يديها في روتين سنوات مديدة زيّف ملامحه .

غادرت كوليلك مع عائلتها إلى إحدى مدن الريف الدمشقي، ظروف حياتية قاسية هجرتهم كرهاً، نتيجة سياسة مفروضة، اتبعت القسوة في تهميش منطقتها كونها تحتضن على أرضها مكونات متعددة، اختلفت بألوانها الإثنية والعرقية فأسمتهم أقليات، ربما في محاولة من سياسة متسلطة، التقليل من حظوظهم في الوصول لبعض حقوقهم، في بداية التخطيط لحياة جديدة، بيئة جديدة، صار لزاماً على الأحلام الصغيرة التي تغادر يقظتها، هل تتغيب وتسلم الفكر الواقع لا مناص من الاستسلام لمفاجآته، بعد أن خسرت أول أحلامها في الالتحاق بالجامعة، واقتناعها بالعمل في إحدى المجالات المتاحة امامها لتأمين مبلغ يعينها على دفع أقساط دورات تعلم الإنكليزية، والتي لم يتسن لها أن تدوم طويلاً في قائمة الأحلام المحققة.

شيء من نمط الحياة الرتيب يتغير، نشرات الأخبار اليومية، المواضيع المثارة في العمل، في الشارع، في الحافلة، وفي البيت بدأت هنا تشتم رائحة جديد قادم، هل الإحساس الغريب كان نتيجة تأثرها بما حصل في ميادين مصر واعتصاماتها، ومتابعتها لنشاطات وشباب وشابات ميدان التحرير؟

أم أنه من المسلم الشعور به، كحالة عامة يستشعرها الجميع ويتوقعها؟

الثورة حقاً قامت.....

كأية عائلةٍ عارضت ظلم النظام وقساوته، أبهجتها مظاهرات استفاقة الناس، نبرة صوت جديدة كان الخوف قد كتمها طويلاً، أمر ما تود كوليلك الحديث عنه، لكن لمن؟

للأب المريض الذي أغمض عينيه لبعض الوقت، هارباً من عقاقير وأدوية لا تفارق يومه؟

أم للأم التي بات قلبها على الطرف الآخر من عالم كانت تعيشه كوليلك واخوتها؟ مرض الزوج والتحاق ولديها بالخدمة الإلزامية، أم أن ألمها على أولادها الذين استسلموا لأعمال مجهدة، تسرق طاقتهم، لتأمين تكاليف علاج، أو لتدبر أمور معيشة لعائلةٍ كثيرة الأفراد؟

أم لأخوةٍ حولتهم ساعات العمل الطويلة لروبوتات، يجذب التعب كل طاقاتهم، ولا يبقى ساعات قليلة يقضونها في المنزل؟

كعادتها لا تبوح سوى لدفترها كل ليلة تسترسل في الحفر على أورقة، وتعتذر في كل نهاية أن لطخت بياضه بكل ذاك الوجع.

بيد أن الحديث تلك الليلة لم يكن موجعاً بقدر ما كان يبعث في نفسها التفاؤل، كونها استقوت على استجرارٍ طويل لرأس الخيط الذي وجدته في حوارات أبيها السرية مع أخويها، كإجابات على غموض لا زالت تجد له متكأ في عقلها.

ما هدف الحاكم من تجويع شعبه وإفقاره؟

لم يسع لنشر فكرٍ قوامه التحريف والزيف في المناهج الدراسية وكتب التاريخ؟

لم تتعارض معلومات مقررات المدرسة مع ما يناقش في البيت؟

لم يسجن ويغيّب أناساً نعرفهم، يعتقلهم، يعذبهم، وأحياناً يقتلهم، بالرغم من أنهم أشخاص خيرون؟

-الأهم من ذلك كله، لم يوصينا الكبار ألا نصدّر ما يقال في حوارات منزلية إلى الخارج، رغم أنها لا تحمل في تفاصيلها خطأً؟

هل ستجيب الاحتجاجات والمظاهرات عن أسئلة، دارت في خاطر طفلة، لم تتجاوز الرابعة عشرة؟ وصارت السنوات تزيد من علامات الاستفهام إلى الآن

في الوقت الذي تظهر فيه كوليلك كطفلة ترفض أن تكبر، محاولةً استرداد بعض من مرحها ودماثتها، غيبوا عنها شخصيتها، لبعض الوقت كانت تسقي بذرة تمرد في قلبها، بدأت بالنمو سراً، بعيداً عن رقابة الأبوين اللذين بدت مؤشرات خوفهما من الجهر والتمرد، تعلو كابتسامات مختصرة، جبلت بدمع فخر، لكنها تُختم بصدٍ ومنع.

القمع هنا، قمع الأهل، المنع من الانخراط في العمل الثوري، تحز في النفس أكثر من قمع السلطات للمتظاهرين، الخوف تزايد بعد اعتقال الأخ الأكبر، الذي جعلته كوليلك بطلاً بارزاً من أبطال يومياتها، تستلهم منه فكرها، تحاول أن تبقى لصيقة به، تشحن ثقتها المتواضعة من أفكاره، هو من مهد لها أول الطريق إلى الثورة، حين بدأ بتعليمها مبادئ اللّغة الكردية سراً، في وقت كان تعلمها، واقتناء الكتب الناطقة، جرماً يعاقب عليه.

كل تلك الذكريات كانت تصل النهار بالليل بالصلاة والدعاء، ليعود سالماً مع كل من اعتقل.

أبلغ الدروس التي استقتها منه، أن طرق الباب ليلاً، يطأ قلبه، مواربا كل ذلك الوجع بابتسام.

وتيرة الأحداث أخذت بالصعود، قمع المظاهرات، الاعتقالات، إطلاق النار، القنص، والمداهمات، تشييع شهداء قتلوا تحت التعذيب.

هل كان إقناع الأهل بالمشاركة بالهتاف والتظاهر والتطوع في إغاثة المتضررين، يتطلب ثورة توازي ثورة الشعب ضد الحكومة؟

مع العلم أن موقف الأهل (الدكتاتوريون اللطفاء) كان يُبَرِّرُ بخوفهم على الأبناء من وحشية فاقت حدود الوصف، ناهيك عن مخاطر تواجه الأخوين اللذين لم يؤمن انشقاقهما بعد.

الثورة في قلبها كانت تتلوى كمعتقلةٍ بين جدران البيت الصغير، تتوق لجهر خلف نافذةٍ تطل على شارع الثورة حيث منظر المظاهرات ومواكب التشييع...

والدها الذي أشبعت رائحة الأدوية المصفوفة قرب سريره تفاصيلها، ومع بدء اقتحام المدينة للتمهيد لحملات وحشية تتعمد الهدم والإحراق، القصف والإعدام، اضطرت العائلة للنزوح إلى منطقة أكثر أمناً، لتتابع مسلسلات الاشتباك والرصاص، القذائف والموت في معظم المدن السورية كتجارة وضيعة، ينهبها المتسلطون ويدفع ضرائبها الأبرياء، واحدةٌ من أقسى الضرائب أنه تحتم على كوليلك، الهرب إلى الحدود التركية سيراً على الأقدام، كآخر الملاذات من الموت المغلّف بقذيفة.

وفاة الوالد التي عجزت الإسعافات عن إمداد قلبه المتعب بمزيد حياة، الأب الذي رسمته كوليلك في يومياتها صرحاً يسند ظلها في أحلك ساعات ضعفها، تغزت بلطفه ودمع فخره الذي لا يكاد يفارق عينيه المتعبتين، أسمته طفلاً رقيقاً، حين كانت تعد له وحدات صغيرة من الأنسولين، تعذر على عينيه المريضتين تحديد المليمات الصغيرة المدرجة على الحقنة، وتأخذ بيده لتسند خطوه المرتجف.

كان غيمة تفيء على قيظ حياتها وتمطرها من سعة قلبه.

تفوقت أبي عليهم كلّهم في أخذ ملامحك، ألا يجدر بي أن أحظى بأن أكون الأقرب، هكذا أسرت له يوماً، فاحتضنها، حضن الآباء للبنات وطن.

رحل الأب دون أن يسمح بنظرة أخيرة لوجهه، لوجنتيه، لثغره المبتسم، ولآخر لمسة تشحذ الدفء من يمينه.

غيمة كوليلك البيضاء رحلت لتصير هناك أكثر بياضاً، بعد أن أمطرت كل مافي جعبتها على قلوب من أحبها مطراً من فكر ورحمة.

يارب كل هذا الوجع! هل كان لزاماً أن يعتصر الوجع قلبها في صمتها المبحوح، لتكشف الستر عن صراخها، أثناء عملها مع من عاش أوجاعاً تفوق أوجاعها، كلسان ينطق عنها بقلمها، صديقها الذي لا يخذلها.

الربيع سيزهر يوماً، وألوانه ستخرج للنور بعد شتاءٍ قارس يجلو قلوب زهراتٍ كثيرة يشهن كوليلك، التي عاركت صقيعاً نهبها القدرة على استكمال الحياة لبعض الوقت، بيد أن حمرتها أذابت الصقيع عنها، وفتحت قلبها للحياة.

عمل للتشكيلية ظلال غزلان

رحيل

قصة شاهيناز عبد الغفور

عمل للتشكيلية رهف مرتضى

روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني روح نساني

أضمه إلى صدري، أشم رائحته، يحضنني بيدين صغيرتين باردتين وشعر مسدل طويل، يضع رأسه على صدري..

-لا ترحلي، لا تتركيني!

-سأخذك بعد فترة، لا تهتم يا ولدي.

يرمقني بنظرات ملؤها القهر، "خذيني معك"، أضمه مرة أخرى، أشمّ فيه رائحة أمه، وتعود بي الأيام ثلاث سنوات، عندما ضممته إلى صدري خمس ساعات متواصلة، وأمه ترقد بقربي جثة هامدة.

نسلك طريق دمشق - حلب، هي ملفوفة بالبياض، قيس يضع رأسه على صدري ويصمت.

أرى الحرقة في عينيه، لا يتحدث، يكتفي بالنظر إليها، ربّان ترقد عند رأسها وتبكي، محمد تحت قدميها، لم يهمّا الطريق، فيما أتعبتني المسافة، ثمانية وعشرون حاجزاً كنت أعدها طوال الطريق، "استعدوا"، يوقف السيارة ليفتش، هاهي جثة هامدة، دماء متجمدة تحت رأسها، إنه القناص الذي لا يرحم أحداً، أعود وأضم قيس إلى صدري، لا أدري لماذا أستعيد هذا كله، هل لأني قررت الرحيل بعد تعب ونضال أربع سنوات؟

أخذت الحرب غاليتي عبير، رحل معها كل ما هو جميل، لم تمض أيام على رحيلها حتى داهم الأمن منزلي يبحثون عن والد الأطفال، لحظات وتغير شكل المنزل بالكامل، يعود قيس ليضع رأسه على صدري ويضمني، لا أدري لما أستعيد هذا كله، قهري، وجعي، هل لأني قررت الرحيل بدونهم هذه المرة؟ هل نسيت وعدي لأمهم؟

كانت مجرد ساعات وانتهى التفتيش، أيقنت لحظتها أنه يجب عليَّ ترك المنزل، جمعت الحاجيات في حقيبة، حملته في حضني وهممت، أيقظت إخوته وخرجت، إنها الواحدة ليلاً، هذه الرحلة الثانية، أجلس في سيارة الأجرة وأضم قيس إلى حضني، أطلب من السائق التوجه إلى ريف إدلب لقاء مبلغ كبير من المال، الحواجز تشتعل ليلاً، الجيش النظامي مسيطر على قريتي، و"الحر" على الطريق، لا أدري في أي اتجاه أرحل!

أريد الحفاظ على حياتهم، محمد، ظلال، قيس وريان، تشق السيارة طريقها في الظلمة عبر البساتين، إطلاق نار وأصوات غريبة، لكن الأولاد المتعبين استسلموا للنوم، لا أدري لماذا أستعيد هذا كله مع الصباح!

ما زلت أسمع صوتها وهي تقول لي: "محمد وظلال وريان وقيس"، كأنها أوصتني بهم للأبد قبل رحيلها، ضوء بسيط على السيارة وهي تشق طريقها عبر البساتين، نتوقف، "إلى أين تذهبون"؟ يصرخ بنا ذلك الوجه الملثم، أخبره أن أمهم ماتت وأريد أن أخرج بهم إلى القرية لتغيير الجو، يفتش السيارة ويتركنا، أتنهد وأظل أفكر بالحاجز الأخير، ماذا سيسألوني؟ وأخيراً وصلنا، الصبح يتنفس، نسمات الفجر مع صوت الأذان، التفت إلى الأولاد لأغطيهم وأشد قيس إلى حضني مرة أخرى، أنظر إلى عينيه المغلقتين الحزينتين، ماذا يخبئ لنا القدر؟ أمتار بيني وبين الحاجز، عناصر مجتمعون حول نار أشعلوها ليطردوا عنهم نسمات باردة، وصلنا، "إلى أين" أحد الجنود يسألني، "من أين أتيتِ؟"، أجيب: "من هناك، أنا من هنا"، أصبحنا بين هنا وهناك، ضائعين بين قدرين محتومين، ينزلني من السيارة، أوقظ الأطفال، أضم قيس إلى صدري وأشد الغطاء عليه خوفاً من البرد، لا أدري لماذا أستعيد هذا كله، يفتشون ويبحثون داخل الحقائب، لا أدري على ماذا، يسمحون لي بالدخول، أطرق الباب، الشمس بدأت تصحو من نومها، وصوت أمي ينادي من الداخل، الأطفال ينهضون كسالى، فتحت الباب وأخذت من بين يدي ابن الثلاث سنوات لتضمه إلى صدرها وتشتم فيه ريح ابنتها التي لن تعود.

مرَّ الوقت وبدأت الأحداث تتصاعد، يشتد حصار الجيش على القرية، وحصار آخر على الطعام والشراب، أنظر إلى الأطفال وإلى أسئلتهم..

أقبل الناس لاستقبالنا، حتى الثكالى، الكل يبكي، يصرخ ويتألم، كل ما أعيه أننا نريد الأكل والنوم، لقد نسينا بعد أيام طويلة من الحصار والألم طعم النوم، لم نعد نتذكر أن هناك حياة، مر الوقت وبدأت باستقرار نسبي مع أطفالي في أحد المنازل، كل ما أريده الآن هو حضن أمي، وبعد طول غياب استطاع المحاربون إخراجهم من الحصار وإحضارها، كنت أبكيها كما يبكي أولاد أختي أمهم الغائبة، لقد اجتمعنا أخيراً بها، ومرت الأيام ونحن نسكن الجبال، لا أخبار حولك سوى الموت والذل، وحكايا يتداولها الناس عن القهر.

امتلأت الوديان بالمخيمات وعلت أصوات منات الأطفال ضمن مساحة صغيرة محدودة من الأمان عبر قماش معتمد لا يقي برداً ولا يرد حراً، بدأت العمل، أمضي

وأسجل عشرات الحكايا للنساء من القهر والتهجير، والأطفال يكبرون أمامي كبناء جميل يبنى لبنة لبنة.

مرت ثلاث سنين. اليوم أصبح عمر قيس ست سنوات، قررت الرحيل مرة أخرى، قضى الليل كله بجانبي وهو يراني ألملم ما أستطيع من ذكريات وآلام، سأمضي، لم أعد أحتمل العيش هنا أكثر، قررت الرحيل إلى الجانب الآخر من الحياة، أمسح دموعه، أرتدي ملابسي وأضع حقيبتي على ظهري، أضم أمي إلى صدري، أضمهم، أبكيهم ويبكونني، لا بد من الرحيل.

نستيقظ ليلاً مرعوبين من أصوات الرصاص وتصاعد الاشتباكات، إنها الحرب، وما هي إلا أيام وبدأت المعركة، كل ما أعيه أني محاصرة، أنا والأطفال وأمي في المنزل، يطرقون الأبواب ويصرخون افتحوا، تركت الباب مفتوحاً ليمروا من خلال المنزل من الجبهة الأولى إلى الثانية، كل ما أعيه أني وضعت الأطفال في الزوايا ليتجنبوا القنص، وقيس متعلق بحضني وريان يتمسك بأطراف ثوبي من الخوف، بعد ثلاثة أيام من الجوع والعطش خرجنا من المنزل لم نحمل شيء سوى همنا وقهرنا، أضع قيس على كتفي وحولي إخوته وأمي، خرجنا، كل ما أعيه عشرات من الناس كأنه حشر، أنا وجميع جيراني.

نمشي عبر الحقول، وبعد ساعات من المشي نصل الحدود لنجلس في الأراضي الحدودية في العراء لحماية أنفسنا، ماء النهر يجري قربنا، يسارع الجميع للشرب بعدما أنهكهم التعب، لا أدري لما أستعيد هذا كله الآن.

الحرب، خمسة عشر يوماً على الحدود، أخرج بعدها عبر الأسلاك الشائكة كل يوم لأصل إلى الجانب الآخر، بدأت الأحداث تتصاعد يوماً بعد آخر، رحيل آخر إلى مكان جديد، ازادت نسبة الموت وبدأت تشتم رائحة الجثث المرمية بين الحقول، ذهبت إلى أحد القادة العسكريين أخبره بأنني أريد أخراج الأطفال.

وضعتهم مع العجائز والجرحى، وتركت أمي ورائي لأصل إلى أول قرية عبر الجبل، لأعود إنسانة مرة أخرى.

قيس.. سأقف على قدمي، وأحضركم، ستأتي إلي..

أخرج من المنزل للمرة الثالثة والأولى وحدي، أصعد الجبل، وأصوات نحيبهم في أذني، أراقب من الأعلى حركات الأطفال في المخيمات وهم يهرعون جيئة وذهاباً، يلعبون ويمرحون بفرح طفولي مبتور الأطراف، أشيح بنظري عنهم وأتجه إلى الأمام، إلى الأسلاك الشائكة التي سأعبرها لأجتاز الغابات نحو عالم جديد.

عمل للتشكيلية صريحة شاهين

عمل للتشكيلية سوسن جلال

كيف أصبحنا غرباء

جود الأصيل

عمل للتشكيلية سارة شما

لست أعلم إن كان من العدل ان اقسم السبعة والثلاثين عاماً التي مرت من عمري لقسمين، دون أن أنصف كليهما معا، لأن القسمة لن تكون بالتساوي. فالثلاثون عاماً الأولى كانت لشخص انا نفسي استغرب وجوده في الماضي، يحمل نفس اسمي ونفس موقعي الاجتماعي، لكنه مختلف كل الاختلاف، عن الشخص الذي عاش السبع سنين الأخيرة، في مدينة تاريخية كدمشق لا يمكن أن يكون للمستحيل مكان في قاموس الكلمات.

كنت فيما مضى شخصية بسيطة، انهزامية (مسالمة) كما كانت تصفني والدتي، تثقلني الكثير من القيود، بعضها من المجتمع وأفكاره، وبعضها من الخلفية الثقافية التي تنحدر منها أسرتي، وأخيراً، قيود كانت تغلفها بدانتي التي ورثتها عن عمتي الوحيدة والحبيبة.

كانت قوانين المجتمع الذي أعيش فيه، والقيود الموضوعة للحد من حرية المرأة، أقوى من الانتماء الأوروبي الذي أتأصل منه، دون أن أنكر أنه ساعدني كثيراً، لكنه لم يطلق جناحي الصغيرين ليحلقا بي في الفضاء العالي، مهما كانت محاولاتي، كنت دائما أعود إلى العش الصغير خائفة من المجهول.

أكملت دراستي وتخصصت في المجال الطبي، مع أنني كنت بعيدة في داخلي عن هذا النوع من الاهتمام، لكنها كانت رغبة العائلة، ولم أستطع وحدي أن أكون قوة ضد رغبتهم، قد لا أكون ندمت يوماً على خياراتهم لي، لكني لم أكن سعيدةً.

علاقات كثيرة مررت بها، أوهام عشت معها، لكنني كنت دائما حذرة لأنني أعلم في داخلي حق المعرفة، أنني لست قادرة على مواجهة مسؤولية خطأ قد أرتكبه أمام عائلتي ومجتمعي، لأنني كنت ضعيفة جداً.

ذات يوم كنت عائدة من جامعتي، استوقفتني عرافة بثيابها البسيطة، نظرت طويلا في عيني، وأمسكت بيدي ورفعت راحة يدي إلى مستوى عينيها، قالت كلمات لا زلت أذكرها مع أن عشرين عاماً مرت منذ ذلك اليوم، قالت - ستتغير حياتك وستقلب رأسا على عقب، ستصبحين وحشاً مع أنك تملكين ملامح الأطفال، ضحكت يومها طويلاً ولكني بعد خمسة عشرَ عاماً، تذكرت كلماتها وبكيت طويلا.

في موسم واحد أصبحت، كل صديقاتي متزوجات، وكل قريباتي ممن هن في عمري وحتى أختي الصغيرة تزوجت، ووجدت نفسي خائفة من المجتمع الذي ما وفر فرصة ليجرحني فيها ويهين أنوثتي، باعتقادهم أن شيءً يتقصني، يمنعني من اللحاق بركب صديقاتي وقريباتي اللواتي تزوجن.

كانت المرة الأولى التي أختار فيها، صحيح أنه لم يكن خياراً عارضه مجتمعي، لكنه لم يكن سعيداً به، ومن راهن على سنواتي الزوجية الثلاث عشرة، كسب الرهان، وخرجت من زواجي ومعي طفلين هما كل ماكنت أملكه حرفياً، وقلب مكسور، وإرادة حديدية.

كانت الحرب التي عشتها لثلاث سنوات في وطني، هي ما أيقظ؟ ذلك الوحش كما قالت العرافة، كانت ذات ضجيج كبير لم تستطع الأنا الأخرى في داخلي أن تتابع سباتها الذي استمر اثنين وثلاثين عاما تقريباً، ومرض السرطان الذي أصاب معدتي من الضغوط النفسية، كما كان يقول طبيبي الاختصاصي الشدة التي عشتها في فترة زواجي، والحرية التي كنت أطلبها بكل أشكالها لوطني، لروحي، لجسدي، لأحلامي، لأفكاري، كل ذلك جعلني بين ليلة وضحاها، غريبة في مجتمع عشت فيه سنوات طويلة.

لا أنكر أنني قمت بالعديد من المحاولات التي باءت بالفشل، لأوقظ ذاتي الأخرى، لكن الدافع لم يكن كبيراً، كان كل شيءٍ يستمد قوته من ضعفي، كنا كمن يجلس في كفتي ميزان، أنا بضعفي في كفة، وكل شيء آخر حولي في الكفة الأخرى، وتأرجحنا لسنوات طويلة.

كان حصاد تلك السنوات عدة محاولات للانتحار، هجران لبيت الزوجية فترات كثيرة، ليالٍ من السهر والدموع والقهر، بدانة، والكثير من الثياب السوداء التي كنت أخفي فيها المي وضعفي وقهري وأحلامي، ووزني الزائد طبعاً.

وبدأت الحرب في ليلة لا قمر فيها كما يقال، وبدأت حياتي بالتغيّر، اكتشفت مع الأيام كم نحن مختلفان، أنا ووالد طفلي، كما كنت ولا زلت ألقبه، فلا شيء يربطني به سواهما، لأنني احتجت قرابة السنتين من الانفصال، حتى تعودت ألا أرتجف خوفاً عند سماع صوته، كما كنت معتادة أن أشعر فيما مضى.

كنا من عالمين مختلفين تماماً، كما كان يقول الطبيب النفسي الذي اعتدنا الذهاب لزيارته، كلما أحس والد طفليَ أنني بدأت أخرج عن المسار الذي رسمه وحده لحياته معي، ليس من باب السلطة أو التجبر، بل من ماض عاشه في منزله، تحكمه المرأة الأم، لأن الوالد كان مريضاً وضريراً،

فرسم صورة لحياته تكون فيها المرأة مجرد عنصر مكمل للصورة المثالية للعائلة لا أكثر.

كل ذلك لأن ماضينا (شئنا أم أبينا)، هو المحرك الرئيسي لواقعنا الحاضر، ولمستقبلنا المتوقع، كل ردود أفعالنا وتصرفاتنا وحتى أولوياتنا، مستوحاة من حياة الماضي، التي كنا فيها، إما أن تشابهه إذا كان هذا الماضي الذي نتحدث عنه يعجبنا، أو تعاكسه إذا كان العكس.

وبدأت الحرب في وطني، وعمت الفوضى حياتي، تغير كل شيء، أصبح الموت قريباً جداً، وأنا ما زلت أعيش بعيدة أشواطاً كثيرة، عن سعادة كنت أرسمها وأحلم بها، تغيرت بنيتي الجسدية (بعد العمل الجراحي الذي أجريته واستأصلت به معدتي)، وتغيرت معها شخصيتي دون أن أستطيع السيطرة على ذلك الوحش القوي في داخلي، بصوت عالٍ كانت دائما أجوبتي وأسئلتي، زال الخوف من نظرة عينيّ، كأنني كنت مختبئة تحت غطاء سميك، وأزالته إحدى قذائف الحرب التي حطمت البيت الذي كنتُ أعيش فيه كذبة اسمها بيت الزوجية.

عشرات السنين كنت أعيشها بوجه لست على يقين كامل فيما إذا كان هو الوجه الأصلي أم المزيف لكينونتي ووجودي، لكنني أعلم أن الوجه الذي أعيش به الآن هو المكون المناسب لأحلامي وقراراتي وأفكاري.

هاتفته ذات صباح بعد شهور من الهجران، أطلب منه أن يخصص وقتا للأطفال ليودعهم لأنني مسافرة، سمعته يقول بصوت ساخر، إنه يفضل أن نلتقي لننفصل رسمياً، جملة حلمت بها طويلاً، كان ساخراً لأنه ظن أنني الخاسرة كما كان يردد طوال السنوات الثلاث عشرة من زواجنا، وانفصلنا بخلع قانوني أعاد إليّ كرامتي وسنواتي التي ضاعت معه.

صافحته وأنا أغادر مكتب المحامي، قلت له: كنت دوماً خاسراً واليوم خسارتك الكبرى، أطلقت بكلماتي عليه رصاصتي الأخيرة وخرجت، كان من الواضح أمام عينيّ، أن كفة الميزان في تلك الليلة كانت لصالحي، خرجت من سجني الزوجي، ومن مجتمعي، ومن عالمي، ومن وطني، فليس من السهل على دمشقية عاشقة للياسمين، أن تغادِرَ وطناً، تعتبر أبسط مكوناته محركاً لمحور حياتها، واثقة من أنني سأعود يوماً ما، امرأة مختلفة تماماً عما كنت عليه.

كان سجناً، أو كنت أحسه كذلك، ليس لشيء سيئ بالسجان، فمن واجبي أن أنصفه كأب ورب أسرة، كان يعشق أولاده، وكان كريماً عليهم وعلى نفسه، وكنت أنا الغريبة بينهم، كنت أمراً مسلماً به، دون حقوق و مع الكثير الكثير من الواجبات والتضحيات، كنت دائماً أسير خلفه، مع رغبة قوية مني بأن أكون إلى جانبه، لكن ماضيه الذي حكمته المرأة الأم، لم يساعدني أن أسرع الخطى لأكون بجانبه، فقضيت عمري معه ألهث وراءه بخطوات متعبة، بقلب يشعر دوماً أنه مهمل، بروح كانت تحاول دوماً أن تحلق بجناحين دون فائدة، فالتزمت الصمت سنوات طويلة، مدركة أن البيئة التي نشأ فيها، لن تساعده على تقبل عصفورة ترغب بالتحليق عالياً في الفضاء الواسع، مع أنني مهما كنت سأرتفع، كان لابد أن أعود إلى عشه الزوجي إن لم يكن من أجله فمن أجل أولادي، فأنا وقبل كل شيء أم وأعتز بأمومتي.

تعلمت أن أحب نفسي، وأن أثق بقدرتي على تعلم أي جديد، فالحرية التي ثرت لأجلها، كانت لوطني ولروحي ولأحلامي، وكنت دوماً أقول: مادام الانسان يتنفس، فهو قابل للتعلم والتغيّر والعطاء، فليس هناك سن معين يوقف نبض الحياة في داخلنا.

ما زلت أتعرف على نفسي كل يوم، وأحب ما أراه من ذاتي الجديدة، أعيش سنواتي بحاضر جديد رسمته، أقاوم فيه يومياً عُقد الماضي، أحاول أن أسامح دوماً ذكرياتي التي تُحزن مستقبلي، لأكون منصفة مع نفسي ومع من يعيش معي، لكن بصوت عالٍ دوماً، لأنني أدركت بعد هذه السنوات، أن صمتي كان نقطة ضعفي الرئيسية، وكما لدي واجبات، فلي حقوق لن أحصل عليها إلّا إذا رفعت صوتي مطالبة بها.

هو صراعٌ أعرف أنه لن يزول بسرعة، لكنه نقدٌ بنّاء للذات الجديدة التي أحملها في داخلي، وأعمل دوماً على أن أكون صادقة مع نفسي، وأن أصدق نفسي لأرتاح في تصرفاتي، وأكون قادرة على مواجهة كل ما يمكن أن يقف في طريقي، لكن حريصة على أن لا أخسر أحداً، لأني خسرت الكثيرين حتى الان.

أصفر

قصة لبنى القنواتي

الحر القاتل. أشعر أني أسبح في عرقي. مسام جسدي تنضح في كل مكان. أتحسس شعري الملتصق بجبيني من العرق اللزج. هل أيقظني الحر. لا. أصوات تأتي من بعيد. أحاول أن أصحو. أتساءل كم الوقت. لم هذا الضجيج الرهيب؟

أتحسس الطاولة قرب سريري كي أبحث عن ولاعتي التي تحوي في مؤخرتها ضوءاً كئيباً. هذه الأداة التي أمست ضرورة للرؤية في الأوقات الحالكة. فمنذ أكثر من عام لم نعرف للكهرباء سبيلاً.

أشعل الضوء وأرفع رأسي. أحاول أن أسرق انفاساً من النافذة فوق رأسي لكن عبثاً. الحر لا دواء له.

متثاقلة تحت ضغط فضولي لأعرف مصدر الصوت المتعالي. زحفت إلى وجهة الضوء، إلى الحائط بحثاً عن الساعة لكي أعرف الوقت. إنها الثالثة صباحاً ماذا يحدث؟ أصوات سيارات الإسعاف تملأ المكان. خرجت إلى الشرفة لأطل نحو الشارع العام. سيارات هائجة تسير بجنون. وأصوات الأبواق والزمامير تعلو فوق كل شيء. انتفض قلبي بشدة. واستعدت كل ذكريات السوء. ركضت مسرعة إلى الغرفة المجاورة في بيتي المكون من ثلاث غرف. وجبت الضوء الخافت لسرير يقع في الزاوية. حيث من المفترض أن يكون صديقي نائماً.

كان يفتح عينيه وأبعد ما يكون عن النوم. تعلو وجهه نظرة أكدت مخاوفي. وسؤال. هل يعقل أن يكون النظام قد استهدف حرستا بالكيماوي مرة ثانية؟ كان يحوم حولنا .

سبق لقوات النظام أن استهدفت مدينة حرستا في٢٠١٣/٥/٢٦ ولا شيء غريب عن هذا المكان. تجمدت الملامح لا شيء يريح البال. لا وسيلة لمعرفة الخبر. لا تلفاز ولا كهرباء. لا اتصالات ولا مواصلات. كل الحياة متوقفة. كل الأجهزة بلا شحن.

بدأت أدور حول نفسي في الغرف مذعورة. نزل صديقي إلى الشارع للحصول على خبر ما. ابتعد في الظلام وأنا انتظر وأحترق. خرجت للشرفة وأخذت أصيح على صديقي :

-شو صار معك

وياني الصوت من بعيد: عم يقولوا كيماوي

-كيماوي وبن على حرستا؟ أجيب والكلمات تنتشر في فمي. لا جواب شافي. لا معلومة أكيدة. نمتلك في المنزل بطارية جافة نشحنها في مكان قريب. حتى نتزود منها للإضاءة احياناً. واحياناً لتشغيل التلفاز.

حاولنا وصل التلفاز عبر منظم الجهد بالبطارية. كنا نعلم أنها شبه فارغة. ولن تزودنا باكثر من نصف ساعة طاقة للتلفاز. التلفاز نائم كما حال العالم. لا خبر يروي ظما الفضول. ويطمئن هذا القلب الجزع. تتالت المرات التي نزل فيها صديقي للحي. لمعرفة أي خبر.

عاد أخيرا مع شروق الشمس.

-عم يقولوا ضاربين جوبر وزملكا بالكيماوي. وفي كتير شهداء .

أدرنا التلفاز مجدداً في السابعة صباحاً. وكان الخبر الصاعق. وكمن صفعني بحائط. لم أعد أعي شيئاً !

قوات النظام تستهدف مناطق جوبر وزملكا وعربين في الغوطة الشرقية بغاز السارين السام. مات الناس وهم نيام.

كنت أصرخ وأصرخ وأصرخ :

-يا الله يا الله يا الله. وأسمع صدى صوتي فقط.

انتبت الطاقة وانطفأ التلفاز .

الناس في الشارع تموج من الغضب. كل الناس مفجوعة. يوم لن يمسح من تاريخ سوريا.

بعد أكثر من ١٥٠٠شهيد وآلاف الإصابات. لم يعد لكلمة الألم معنى. الجثث تتكدس بالعشرات في كل مكان .

المقابر لم تعد تتسع لحزننا. وغضب ينتظر أن ينصف .

21/8/2015 الغوطة الشرقية- مسرابا

سيدة سوريا

ABF